تحوُّل الفكر في أوروبا

ينقسم هذا البحث إلى قسمين رئيسيين؛ في القسم الأول نسرُد التحولات التي مرّ بها الإنسان الأوربي في القرون الأخيرة، وفي القسم الثاني نُحلِّل التحولات الفكرية من حيث أسبابها، أو من حيث نتائجها. ونتناول في هذين القسمين ثلاثة محاور أساسية: التحولات التي طرأت على علاقة الإنسان مع الطبيعة، التحولات التي طرأت على علاقة الإنسان مع الله، وأخيراً التحولات التي طرأت على علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان.

أولا: ســرد تــاريخي عــام لتحــوُّل الفكر الأوروبي

المحور الأول: علاقة الإنسان مع الطبيعة

إرهاصات عصر النهضة:

اقتحم الأوربيون المشرق الإسلامي من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر، وعلى الرغم من المآسي والضحايا الكثيرة التي خلّفتها الحروب الصليبية[1]، إلا أنها مكّنت الأوربيين من التعرُّف على حضارة الشرق الإسلامي. فقد نقلوا ما تميز به المسلم من فنون الدفاع، وحركات الحصار، ووسائل القتال، واستخدام الدروع في حماية الفرسان، ونقل الرسائل بواسطة الحمام الزاجل، وشمل الاتصال بين المسلمين والأوروبيين، انتقال أنواع من النباتات والأشجار كالأرز والليمون والبطيخ، واقتباس وسائل الري، وكذلك صناعة العقاقير والأصباغ والتوابل الشرقية، وصناعة الأقمشة بأنواعها المتميّزة. ولو أضفنا إلى ذلك كله، موت الكثير من المشاركين في الحروب الصليبية من الإقطاعيين الأوربيين، الذي أتاح تحرر الرقيق من عبوديتهم، وانهيار نظام الإقطاع....أدركنا أثر هذه الحروب في الحياة الاجتماعية، وتيسير الظروف المناسبة لظهور حركة النهضة الحديثة.

ونشطت قبيل النهضة حركة واسعة النطاق لإحياء التراث القديم، واتجه الباحثون الأوروبيون إلى منابع الحضارة القديمة-اللاتينية والإغريقية- يتتبعون المخطوطات أينما وجدوها، في الأديرة والكنائس، ورحل العلماء الإيطاليون إلى القسطنطينية للتنقيب عن المخطوطات، كما هاجر كثير من علماء بيزنطة إلى إيطاليا لنشر تراث اليونان، وترجمة المؤلفات القديمة[2]. ويسر لهم الأمر، ما أدخله حنا جوتنبرج الألماني (1396-1468) من تحسينات على الطباعة، فبعد أن كانت الطباعة تتم بواسطة الكتل الخشبية أو الحجرية، لجأ جوتنبرج إلى صنع حروف منفصلة من معدن خاص، مزج فيه الرصاص والقصدير، وطبع الإنجيل عام 1455، **وقد ساعد هذا الابتكار على زيادة كمية الكتب المتداولة، حيث جعلت بمقدور الإنسان أن يخلو بالكتاب المطبوع مع نفسه دون وسيط، فازداد –بالتدريج-اطلاع الناس ومتابعتهم لكل**

---

[1] استمرت الحروب الصليبية مائتي عام، وبالتحديد من عام 1095م إلى عام 1391م. وللتعرف على تفاصيل هذه الحروب أنظر: د.قاسم عبده، ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة، العـدد رقم (149)، الكويت. أيضاً: ول ديورانت، قصة الحضارة، ج 15 ص 11-69.

[2] كان الأوربيون يعتمدون في العصور الوسطى على الفلاسفة المسلمين في التعرُّف على التراث اليوناني، لكن ابتداء من هذه اللحظة سيبدأ الأوربيون بالرجوع إلى التراث اليوناني مباشرة.

فكر جديد، وانتشرت العلوم وظهرت روح النقد وحرية البحث العلمي.

وكانت من الابتكارات الهامة في هذه المجال البوصلة، فقد استخدمت في السفن وأعطت الإنسان آنذاك الفرصة لخوض غمار البحار، واكتشاف المجهول على هدى، في حين أنه في السابق لم يكن يجرؤ على القيام بذلك. وفي مطلع القرن الخامس عشر، تمكن الملاحون البرتغال من اكتشاف سواحل أفريقيا الغربي، وتم بناء مراكز وقلاع حربية وتجارية، كما حققت البرتغال أرباحا طائلة من وراء نقل الأفريقيين إلى أوروبا، وبيعهم في أسواق العبيد، وتتابعت الرحلات سنة بعد أخرى، إلى أن تمكن الملاح "دياز" من بلوغ "رأس الرجاء الصالح" في أقصى جنوب أفريقيا عام 1488. وبعد ذلك بأعوام قلائل، وبالتحديد في 1497 اجتاز الملاح البرتغالي "فاسكودي جاما" رأس الرجاء الصالح، حيث التقى-كما هو معروف-بالملاح العربي "احمد بن ماجد" الذي أرشده إلى جنوب غرب الهند. وفي العام ذاته، حقق البرتغاليون كشفا جديدا، حين تمكن الملاح "فيزبوتشي" من الوصول إلى البرازيل، وكانت هذه الكشوف فاتحة استعمار جشع.

وقبل أن يكتشف البرتغاليون أمريكا الجنوبية بخمس سنوات، تمكن الاسبانيون بواسطة القبطان "كريستوفر كولمبس" من الوصول إحدى جزر البهاما في البحر الكاريبي، حيث أطلق عليها اسم "سان سلفادور"، وغادر الجزيرة ليمر على كوبا وهايتي، حاملا معه أنواعا من الطيور والحيوانات والحاصلات الزراعية وعديدا من الهنود من سكان أمريكا الوسطى. وتمكن الأسبان أيضا، بواسطة الملاح ماجلان، اجتياز الطرف الجنوبي من أمريكا الجنوبية، ليصل من هناك إلى المحيط الهادي، ومن ثم إلى جزر الفلبين.

كما قام الفرنسيون بعد ذلك، باللحاق بركب الكشوف الجغرافية، فاتجه ملاحوها إلى أمريكا الشمالية، حيث أسسوا في كندا مدينتي "كويبك" و "مونتريال"، وحققت إنجلترا إنجازات مهمة في حركة الكشوف، حيث تحركوا في اتجاه أمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى، وأنشئوا شركة الهند الشرقي-الإنجليزية، التي سهلت لهم بسط سيطرتهم على الهند.

- **الثورة العلمية:**

أسفرت حركة الكشوف الجغرافية عن نتائج عديدة، كان لها آثار بالغة الأهمية في حياة أوروبا والعالم في العصر الحديث، فقد ساعد الاتصال بين أوروبا والعالم الجديد، على تقدُّم المعارف والعلوم، فقد فتحت الكشوف الجغرافية آفاقا واسعة أمام العلماء، لمزيد من البحث العلمي، وترتب على ذلك، تعديل كثير من النظريات التي سادت في أوروبا في العصور الوسطى، وظهور نظريات جديدة تدعو إلى حرية البحث، واستخدام المنهج العلمي القائم على التجربة.

ففي مجال الفلك كان الاعتقاد السائد منذ القدم، أن الأرض هي محور الكون، وهي النظرية التي قدّمها العالم اليوناني "بطليموس" في القرن الثاني الميلادي، وبنى عليها أن الشمس والقمر والكواكب الأخرى تدور حول الأرض. لكن بحلول القرن الثالث عشر الميلادي، طلع عالم الفلك البولندي

"نيكولاس كوبرنيكوس" (1473-1543) بنظرية مخالفة، توضح أن الشمس هي محور الكون، وأن الكواكب أخرى بما فيها الأرض، تسير في مدارات حول الشمس، وقدّم كوبرنيكوس تقارير مفصّلة عن حركات الكواكب، ورسم مساراتها، كما استنتج جداول بوسعها أن تتنبأ بحركة الكواكب ومواقعها بالنسبة للأرض.
وكانت أفكار كوبرنيكوس بحاجة إلى أدوات أكثر دقة مما استخدمه، ليؤكد صحة نظريته الجديدة، وهو الأمر الذي حققه عالم فلكي آخر من إيطاليا هو "جاليليو" (1564-1643)، فقد أعطى البرهان العلمي على صحة نظرية كوبرنيكوس. إذ بنى منظارا "تلسكوب" صقل عدساته بنفسه، حتى زادت نسبة التكبير فيه 30 مرة، ووجهه صوب السماء، وتعرّف على سطح القمر، وتابع حركة السيارات، واكتشف أربعة من أقمار المشتري، ثم أثبت علمياً أن الشمس هي مركز الكون، وأن الكواكب تدور حولها. لكن ما كاد جاليليو أن يحقق انتصاره العلمي، حتى ثارت ثائرة البابا، وقدّم للمحاكمة إلى محكمة التفتيش، بتهمة مخالفة معتقدات الكنيسة الكاثوليكية، التي كانت آراء "أرسطو" و"بطليموس" القديمة، جزءا من معتقداتها، وقد حظرت نظرية كوبرنيكوس، وحُكِم عليه بأن يسحب أقواله، ويخطّئ أراءه، فإذا امتنع يعذّب عذاباً شديداً، واختار جاليليو التراجع، ووقع اعترافا تضمّن هجره للرأي الفاسد الذي زعم فيه أن الشمس هي مركز الكون، وبأنها ثابتة لا تتحرك، ووضع تحت الإقامة الجبرية حتى وفاته[3].
وفي العام الذي توفي فيه جاليليو شهد العالم مولد عقل رياضي وطبيعي جديد هو "اسحق نيوتن" (1642-1727)، الذي حقّق الانتقال الحاسم من المرحلة الوصفية[4] إلى المرحلة الديناميكية، مرحلة تعليل المستقبل وتفسيره سببياً، وإلى نيوتن يعود الفضل في ابتكار القوانين الأساسية للميكانيك وقوانين الجاذبية[5].
وشهد **علم الرياضيات**، الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعلم الفلك تقدّماً واضحاً، وكان في مقدمة علماء تلك المرحلة رينيه ديكارت (1596-1650)، وهو رياضي وفيلسوف فرنسي، فسّر الحوادث الطبيعية بعوامل ميكانيكية[6]، ووضع مبادئ الهندسة التحليلية، بتطبيق الجبر على الهندسة،

---
[3] لمزيد من التوضيح أنظر: ول ديورانت، قصة الحضارة ج 30 ص 222-282.
[4] المقصود بالمرحلة الوصفية تلك المرحلة التي ساد فيها الاعتقاد بأن العلم لا يستطيع أن يفعل شيئاً قط، سوى وصف ما يحدث، وهو لا يستطيع أن يقدم سبباً لحدوثه.
[5] كانت العلوم الطبيعية في أوربا مطلع العصر الحديث علماً ميكانيكياً في المحل الأول، فالميكانيكا نفسها كانت أهم العلوم وأدقها، وبفضلها تحققت مجموعة كبيرة من كشوف القرنين السابع عشر والثامن عشر. وكان نموذج المعرفة آلي،في حين كان نموذج المعرفة في العصور الوسطى غائي. ونعني بالنموذج الآلي الفكرة القائلة بأنك تستطيع أن تفهم الظواهر على نحو أفضل إذا استطعت أن تنظمها في نسق تكون فيه كل منها مؤدية إلى الأخرى بطريقة آلية خالصة، أما النموذج الغائي فيتمثل بالفكرة القائلة بأنك تستطيع أن تفهم الظواهر على نحو أفضل لو عرفت الغاية من وجودها. على أي حال، في العصر الأوربي الحديث تم التخلي بالتدريج عن النموذج الغائي لصالح النموذج الآلي، بل كان الكون كله في نظرهم آلة ضخمة تسير في عملها بانتظام، وعلاقة الله بالكون أشبه بعلاقة الصانع بصنعته. وكان أهم العوامل المؤدية إلى تعزيز النظرة الآلية ظهور الآلة البخارية عشية الثورة الصناعية.
[6] أكد ديكارت على أن الحيوانات مثلا ليست سوى آلات ذاتية الحركة، وإن كانت تعمل كما لو كانت واعية، فإنها في الواقع لا وعي ولا شعور لها، فهي ليست سوى آلات طبيعية، شبيهة بالآلات التي يصنعها الإنسان، وكل الفرق في كمال الصنع. والإنسان وحده هو الذي يملك نفساً أو ذهناً. وقد يبدو أن الحمل يفر هارباً من الذئب لأنه "يشعر" بالخوف، غير أنه في الواقع لا يشعر بشيء قط. بل ينقل عن مالبرانش-الذي كان قسيساً وتلميذاً لديكارت-أنه كان يلهو أحياناً بضرب كلبة له، بحجة إيمانه بتلك

وعبّر عن الرسوم الهندسية بمعادلات جبرية. وكذا الأمر في بقية المجالات والعلوم، ففي **مجال الكيمياء**، اكتشف "روبرت بويل" (1627-1691) قانون الغازات، وبحث في سرعة الصوت، وبنية الكهرباء الساكنة. وحصل "جوزيف بريسلي"(1723-1804) على الأكسجين بتسخين أكسيد الزئبق، وكشف عن غاز أول أكسيد الفحم، وهو المادة الأساسية التي يتألف منها القسم الأعظم من الغز الذي نستخدمه اليوم في الطهو التدفئة. وأعلن "لافوازييه" (1743-1794) أن الماء مركب كيماوي، وليس عنصرا، وأن الهواء مكون من عدة غازات. وفي **ميدان الطب**، كشف "وليم هارفي" (1578-1658)-مؤسس علم وظائف الأعضاء-عن الدورة الدموية الكبرى في جسم الإنسان. كما كشف "لويس باستور" (1822-1895) عن وجود الجراثيم (الميكروبات)، وتسببها في إصابة الجسم بالمرض، وحضّر لقاحاً ضد بعض الأمراض.
إن الهدف الأساسي من كل تقدّم علمي، هو تذليل المصاعب التي تواجه الناس، وتأمين حياة أكثر رخاء. وقد كانت المنجزات والاكتشافات التي حققها العلماء في مختلف المجالات، إيذاناً بمولد عصر جديد في أوروبا والعالم، وبالفعل فما كاد القرن الثامن عشر يطل على العالم، حتى كانت أوروبا تشهد انقلاباً شاملا في ميدان الصناعة، ترك بصماته واضحة في المجتمع البشري قاطبة. لقد كانت الثورة الصناعية عملية تغيير شاملة في أدوات الإنتاج الصناعي، ووسائله وحجمه وعلاقاته ومستواه، وتبدّل كامل في أساليب التمويل والتسويق والتوزيع.

▫ الثورة الصناعية:

الثورة الصناعية لم تحدث فجأة، بل مرت بمراحل، ولو رجعنا إلى العصور الوسطى، لرأينا أن الصناعة كانت يدوية ومنزلية، وملبية لحاجات ذلك العصر. ثم أخذت في الاتساع مع حلول عصر النهضة، وحركة الكشوف الجغرافية. وما لبثت أن قفزت وازدادت نمواً، إثر تقدم العلوم وظهور الاختراعات، فراحت الآلات ترتقي وتتعقد، وتوالت خطوات الإنسان في مجال الطاقة من الاعتماد على قوة الإنسان فالحيوان، ثم قوة البخار فالنفط، فالكهرباء... وكان ذلك يعني انقضاء عصر الصناعة اليدوية إلى غير رجعة.
ومن إنجلترا انبثقت شرارة الثورة الصناعية الأولى، ومنها انتقلت إلى سائر البلدان الأوروبية، فلقد ملكت إنجلترا ثروات هائلة، بحكم استعمارها لأقاليم واسعة في العالم، مكّنتها من انتزاع السيادة البحرية، واحتكار التجارة العالمية، وتوافرت لديها المواد الأولية، بكميات كبيرة، سواء في أرضها أو في مستعمراتها، واليد العاملة الرخيصة، وأهم من ذلك كله: الاستقرار السياسي الداخلي.
وقد وفق "جون كي" عام 1733، إلى اختراع المكوك الطائر (الآلي)، الذي أتاح لعامل النسيج أن يعمل بسرعة فائقة، ويحسن إنتاجه. وتوصل "جيمس هارجريفز" عام 1767 إلى اختراع آلة يدوية للغزل، تديرها عجلة تحمل ثمانية مغازل وزوجاً من الملاقط، مما ساعد عاملا واحداً على غزل ثمانية خيوط في وقت واحد، وأدخلت تحسينات على هذه الآلة، فأصبحت

النظرية. وهذا كله يؤكد إلى أي مدى بلغت النظرة الآلية للكون في ذلك العصر.

تدور بقوة الخيل، ثم بقوة الماء، وانتشرت الأنوال الآلية في إنجلترا، حتى بلغ عددها في نهاية القرن الثامن عشر مأتي نول.
كما حققت صناعة المنسوجات نجاحاً أكبر، بعد استخدام قوة البخار في إدارة الآلات، وذلك حين اخترع "توماس نيوكمان" مضخة بخارية كابسة، وما لبث أن أدخل عليها "جيمس وات" عام 1764 تحسينات حوّلت الحركة العمودية في المضخة البخارية، إلى حركة دائرية، وأمكن بذلك إدارة آلات الغزل والنسيج، والحصول على إنتاج أكبر في وقت أقصر.
ولهذا تعتبر الآلة البخارية الميكانيكية، بحق، أحد الأركان الأساسية في الثورة الصناعية.
ثم نشط الإنجليز بعد ذلك في تحسين صناعة الحديد، لاستخدامه في صناعة الآلات، وتمكنوا من تحويل الحديد إلى صلب (فولاذ) بنفقات قليلة.
كما استلزم النشاط الصناعي الكبير، اهتماماً كبيراً بوسائل النقل، فأدى إلى إصلاح أو إنشاء مئات من الطرق البرية، والقنوات المائية، على نظام هندسي جديد. ولما ظهرت صناعة الحديد، صنعت القضبان الحديدية لتسيير عربات تجرّ بواسطة الخيول، ثم تطورت الفكرة إلى استخدام قوة البخار. ولما كان المحرّك البخاري يتطلب تكاليف باهظة، فقد اهتم العلماء بالبحث عن بديل أقل كلفة، فكان المحرك البنزيني (الداخلي الاحتراق).
واستطاع العلماء في أواخر القرن الثامن عشر، من تحقيق حلم كبير طالما داعب مخيلة الإنسان، وهو الطيران. ولم يكن ذلك ممكناً إلا بعد جهود مضنية، وكانت الخطوة الأولى، الانطلاق بالمنطاد عام 1785 الذي حققه "بلانشارد" وعبر به القنال الإنجليزي، ثم بدأت التجارب على الطيران الشراعي، ولما تم اختراع محرك الاحتراق الداخلي، صمم الأخوان "رايت" عام 1903 طائرة مزودة بمحرك يعمل بالبنزين.
وكان اكتشاف الكهرباء أروع إنجاز علمي خدم البشرية، وبدأت الخطوة الأولى مع الإنجليزي "وليم جلبرت" (1540-1603) فولّد الكهرباء الساكنة (أي التي لا تنقل)، وصنع الإيطالي "فولتا" (1745-1827) مولّداً حصل بواسطته على أول تيار كهربائي عن طريق التفاعل الكيماوي، وتكريماً لجهوده أطلق اسمه على وحدة الضغط الكهربائي (الفولت). ثم قام "فاراداي" (1791-1867) باختراع أول مولّد كهربائي (الدينمو) عام 1830. لكن قمة المنجزات في مجال الكهرباء، كان اختراع الأمريكي "توماس أديسون" عام 1879 للمصباح الكهربائي، فانتشرت بذلك الكهرباء وأضاء العالم بها.
أما في مجال وسائل الاتصال، فقد تمكنت فرنسا من إنشاء أول خط برقي (تلغراف) عام 1794، وتلاحقت خطوات التطوير في هذا المجال، حتى جاء الاسكتلندي "جراهام بل" الذي شغلته فكرة نقل الأصوات بواسطة موجات كهربائية، فتمكن من صنع جهاز التلفون عام 1876، وتمكن من إجراء أول حديث تلفوني بين نيويورك وسان فرانسيسكو.
إذن، الدول الأوروبية استفادت من التجربة الإنجليزية، ولحقت بركابها، فقلّدت آلاتها الصناعية، وشجعت الابتكار، فكانت فرنسا أول هذه الدول لحاقاً بها، ثم جاءت ألمانيا متأخرة بسبب الانقسام السياسي، ورسوخ الإقطاع فيها، ثم بدأت الثورة الصناعية في الولايات المتحدة بعد انتهاء حرب الاستقلال.

وقد أسفرت الثورة الصناعية عن نتائج في بالغة الأهمية، في علاقة الإنسان مع الطبيعة. لقد بدّلت الثورة الصناعية ظروف الإنسان المعيشية، ونظامه الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. واختلفت آثار هذه النتائج شدة وضعفاً بين مجتمع وآخر، تبعاً لاختلاف ظروف وإمكانات كل مجتمع، والزمن الذي دخل فيه ميدان التصنيع. على أن أبرز النتائج الاقتصادية للثورة الصناعية هي:

1. سيادة الصناعة الآلية: إذ انهارت الصناعة اليدوية، أمام منافسة الآلة، ورأس المال. وهجر العمال اليدويون صناعاتهم والتحقوا بالمصانع الكبيرة.
2. زيادة الإنتاج وتنوّعه: فقد قلّت تكاليف الإنتاج إثر نمو الصناعة الآلية، وأدى ذلك إلى رخص البضائع ورواجها، ووصولها إلى كل جهات العالَم.
3. اتساع النشاط الاقتصادي: فمن حيث التجارة؛ أدى تقدم الصناعة إلى ازدهار التجارة واتساعها، نظراً لازدياد الحاجة إلى المواد الخام، وكثرة الإنتاج، وضرورة تصريفه في الأسواق الخارجية، ونتج عن ذلك زيادة دور الوسطاء التجاريين والوكلاء، ونمو مراكز التوزيع في المدن الكبرى. ومن حيث الزراعة؛ قل الاهتمام بالزراعة في إنجلترا، بسبب التقدم الصناعي، وهجر الفلاحون حقولهم للعمل في المصانع، في حين ترافق التقدُّم الصناعي والزراعي في ألمانيا، ودخلت الآلة ميدان الزراعة، وحلّت محل اليد العاملة في أكثر الأعمال الزراعية. أما من حيث المحاصيل الزراعية، فقد ازدادت أهمية القطن والمطاط لأهميتهما الصناعية، وبُذلت الجهود لتحسين أنواعها، وزيادة إنتاجها.
4. ارتفاع الدخل القومي: ارتفع الدخل القومي للدول الصناعية، بسبب التوسع في الإنتاج وتصديره إلى الأسواق الخارجية، وقد زادت الثروة العامة، وارتفعت الموارد المالية بصورة عامة.
5. ظهور الشركات المساهمة والبنوك: كانت المشروعات الصناعية الكبيرة بحاجة إلى رؤوس أموال ضخمة لتقوم بنفقاتها، فظهرت الشركات المساهمة، وأُنشئت البنوك التي اتسع نشاطها المالي.
6. نمو الرأسمالية: عاد الإنتاج الكبير على أصحاب المصانع بأرباح طائلة، غطّت نفقات الإنتاج وتكاليفه وزادت عليها، وتحولت إلى رأس مال جديد، أمكن استغلاله للحصول على أرباح جديدة عن طريق توسيع المصانع، وزيادة الإنتاج، أي أن النمو الإنتاجي تلازم مع نمو رأس المال الصناعي، فقويت الرأسمالية ورسخت جذورها، وتطورت باطراد حتى وصلت إلى مرحلة الإمبريالية، وهي أعلى مراتب الرأسمالية[7].
7. ظهور مشاكل اجتماعية جديدة: كمشكلة الغذاء والسكان، نتيجة انتقال اليد العاملة بالزراعة نحو العمل في المصانع. ومشكلة الموارد الطبيعية، نتيجة الاستهلاك الهائل لموارد الطبيعة دون وجود ما يُعوِّض ذلك الاستهلاك، ومن أبرز الأمثلة على ذلك استهلاك كميات هائلة من خشب الغابات، واستخراج كميات هائلة من البترول...الخ. ولعل من أهم المشاكل الاجتماعية التي ظهرت نتيجة الثورة الصناعية: مشكلة

[7] في هذه اللحظة ظهر ماركس، فأكد على وجود تناقض طبقي. تناقض بين طبقة تملك وسائل الإنتاج، وطبقة لا تملك شيئاً من وسائل الإنتاج، وإنما تعمل-لصالح الطبقة المالكة-في تشغيل وسائل الإنتاج. وهذه الثروة المنتجة التي جسدت عرق جبين هذا العامل المستغل، تستولي عليها الطبقة المالكة. ومع تطور الآلة، تنبأ ماركس بأن يشتد الصراع بين الطبقتين حتى ينفجر ثورة عارمة.

تلوُّث البيئة، نتيجة لنفايات المصانع، حيث تطرُد تلك المصانع من مداخنها كميات هائلة من الغازات التي تُلوِّث جو مدن بأكملها، وتُعرِّض حياة الإنسان لأخطار جسيمة.

- **ثورة علمية جديدة:**

وقد أدت الثورة الصناعية إلى ثورة علمية جديدة، حيث أن عالمنا اليوم يشهد ثورة كمّية وكيفية هائلة في المجال العلمي، فقد اتسع نطاق العلم إلى حد كبير، واكتسبت إنجازاته صفات جديدة، وأصبحت أهميتها تفوق كل ما حقّقه العِلم في أيّ من العصور السابقة، وبذا صار العِلم في عالمنا المحور الذي تدور حوله كل المظاهر الأخرى لحياة البشر. **ومن أهم منجزات العلم الحديث: الطاقة الذرية، غزو الفضاء، الهندسة الوراثية، وأخيراً وليس آخراً.. ثورة المعلومات.** وقبل أن نستعرض هذه النقاط بإيجاز لابد من توضيح خصائص التقدُّم العلمي المعاصر.

يتميز عالمنا المعاصر بكثرة المنجزات العلمية، وتسارُع حركة الكشف والاختراع، حيث تقول الإحصاءات أنَّ كمية المعرفة البشرية تتضاعف في وقتنا، خلال فترة تتراوح بين عشر سنوات، وخمس عشر سنة، وهو ما كان يستغرق في العصور الماضية مئات السنين. كما يتميز عالمنا بتزايد العلماء والباحثين بمعدّل مذهل؛ فعدد العلماء الذين يعيشون الآن يساوي ثلاث أرباع مجموع العلماء الذين عاشوا على هذه الأرض منذ بدء التاريخ البشري. ويتميز عالمنا أيضاً بازدياد الاهتمام بالتطبيق العلمي للعلوم، واتجاه المؤسسات الصناعية من أجل تطوير إنتاجها إلى إنشاء المختبرات ومراكز الأبحاث العلمية، وتجنيد الخبراء والعلماء للعمل لحسابها. وبدأ العلماء يتفرغون للبحث العلمي في المعاهد والجامعات والمختبرات ومراكز الأبحاث، ونمت هذه المؤسسات العلمية وازدادت وحظيت برعاية الحكومات والمؤسسات الاقتصادية. وأصبح العلماء يتخصصون في علم واحد، أو بالأحرى في جانب واحد من جوانب العلم الواحد. وفي الوقت نفسه ازداد الاهتمام بعقد المؤتمرات العلمية المتخصصة، ونما التعاون من خلال تبادل الخبرات والمعلومات، ونتائج التجارب والأبحاث العلمية بين العلماء في شتى أرجاء العالَم، وتزايد أعداد المطبوعات العلمية من كُتب ومجلات. وإذا استمرت زيادة الإنتاج العلمي بنفس معدلها، فإن وزن المجلات العلمية في العالم-كما يُقدِّر الخبراء-سيصبح بعد مائة سنة، أثقل من الكرة الأرضية ذاتها (هذه التقديرات بطبيعة الحال قبل تطوير الكمبيوتر الشخصي).

1. **الطاقة الذرية:** كان من أهم منجزات العلم الحديث، الكشف عن إمكانات الطاقة الذرية. وكان التعرّف إلى الطاقة الكامنة في الذرة، حصيلة مجموعة كبيرة من التطورات الأساسية في علم الفيزياء.

وقد بدأ العالم الفرنسي "أنطوان هنري بكوريل" (1852-1908) أول خطوة في هذا المجال، حين اكتشف أن التعديلات التي تطرأ على بعض المواد، تتولّد عنها طاقة، وخطى الزوجان "بيير" و"ماري" كوري (1867-1934) خطوة أخرى حين اكتشفا أن بعض الذرات إذا ما حُطِّمت إلى أجزاء صغيرة، تتولّد عنها طاقة هائلة، وهو ما بات يعرف بـ"النشاط الإشعاعي". ثم تمكن "أرنست رزرفورد" (1871-1937) النيوزلندي من

تحطيم الذرة، ونشر النظرية الحديثة لتكوين الذرة. واستطاع الألماني الشهير "ألبرت آينشتين" (1879-1955) الذي هاجر إلى الولايات المتحدة، بعد سيطرة الحزب النازي على الحكم في ألمانيا، استطاع أن يخطو بالنظرية خطوات كبيرة، حين قدّم إثباتاً رياضياً على أن المادة والطاقة مظهران لشيء واحد، وأنه يمكن أن يحل أحدهما محل الآخر. واستناداً إلى هذه النظرية أمكن صنع أول قنبلة ذرية، ألقيت على مدينتي "هيروشيما" و"ناجازاكي" باليابان خلال الحرب العالمية الثانية، فدُمّرتا تماماً.

أما العالم الإيطالي "أنريكو فيرمي" (1901-1954) فيعتبر "أبو عصر الذرة"، إذ قاد فريقاً من العلماء لبناء أول مفاعل ذري عام 1942، وأنتج هذا المفاعل سلسلة تفاعلات نتجت عن تفجير الذرة، ومنذ ذلك الحين أصبحت الذرة من أبرز معالم القرن العشرين، فتطوّرت الأسلحة في الميدان العسكري من القنابل الذرية إلى القنابل الهيدروجينية، وصارت هذه القنابل سلاحاً استراتيجياً بالدرجة الأولى. إذ لم تعد حكراً على دولة واحدة، بعدما تطورت وسائل نقلها، وأصبحت قادرة على الوصول إلى أي مكان في العالم. وبذا نشأ ميزان الرعب النووي بين الدولتين الكبريين: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، وترتبت المناورات السياسية والعسكرية بعد الحرب العالمية الثانية، ومحاولات الردع والاحتواء والأحلاف العسكرية، وما بات يعرف بالحرب الباردة، واستمر الوضع على هذا الحال حتى انهيار الاتحاد السوفيتي، فازداد خطر الأسلحة الذرية، لاحتمال وصولها إلى دول أخرى، فروسيا وبقية الجمهوريات السوفيتية-وريثة الاتحاد السوفيتي-تملك الأسلحة الذرية وتحتاج إلى المال، ودول أخرى أصغر تحتاج الأسلحة الذرية وتملك المال.

إلا أن الطاقة الذرية لم يُقتصر الاستفادة منها على الجانب العسكري، فالعلماء اشتغلوا في الكشف عن وسائل تسخير هذه الطاقة في الأغراض السلمية، كالعلاج للأمراض المستعصية، وفي المشاريع الهندسية الكبرى، كشقّ الأنفاق، وكذلك استخدام هذه الطاقة كمصدر للوقود.

2. **غزو الفضاء:** تباهى الزعيم الألماني "هتلر" خلال الحرب العالمية الثانية، بأنه يستطيع كسب الحرب بأسلحته السرّية. وفي صيف عام 1944 بدأت الصواريخ الألمانية العملاقة "ف-2" تندفع عبر القنال الإنجليزي إلى لندن عاصمة إنجلترا. وكان ذلك إيذاناً بعصر القذائف ذات الصواريخ الموجّهة بعيدة المدى، التي يمكنها حمل رؤوس نووية. وحين بدأت الطائرات النفاثة في الطيران بضعف سرعة الصوت، ظهرت الحاجة لأسلحة أسرع انطلاقاً، وأشد تدميراً، فكان الصاروخ ذو السرعة الفائقة والقوة المدمرة، ملبّياً هذه الحاجة، لأن العقل الإلكتروني المركّب في الصاروخ يمكنه من ملاحقة قاذفات القنابل المقاتلة التي تحاول الإفلات منه.

ثم بدأ كل من الاتحاد السوفيتي-المنهار حالياً-والولايات المتحدة سباقاً في ميدان الصواريخ العابرة للقارات، وإنتاج قذائف موجهة قادرة على حمل رؤوس نووية، يزيد مداها إلى أبعد من 5000 ميل. وهنا بدأت فكرة غزو الفضاء، واكتشاف مجاهله، وقد كان هذا حلماً قديماً يراود الإنسان، واقتضى الأمر سنوات طويلة من الدراسة والتخطيط في وكالة الفضاء

السوفيتية وإدارة الفضاء والملاحة الجوية الأمريكية (ناسا)، وأنفقت الدولتان بلايين الدولارات لتحقيق هذا الهدف. وكان القمر بجاذبيته الصغيرة، وانعدام وجود غلاف غازي له، صالحاً ليكون محطة انتقال ممتازة تنطلق منها سفن الفضاء إلى الكواكب الأخرى.
وأطلق الاتحاد السوفيتي-المنحل-أول رائد فضاء وهو "يوري جاجارين" في (1961) في المركبة "فوستوك-1"، وحين بدأت الأرض تبتعد عن عيني رائد الفضاء، ووصلت المرطبة إلى مدارها، شرعت تدور حول الأرض بسرعة (28260) كيلومتراً بالساعة، وقد احتاج جاجارين إلى 108 دقائق كي يدور حول الأرض. وتوالت رحلات الفضاء بعد هذا التاريخ، حتى كان الموعد المنتظر لهبوط أول إنسان على سطح القمر، وحققت المركبة "أبولو" التي حملت الملاحين "نيل أرمسترونج" و"أدوين ألدرين"، وعاد الرائدان إلى الأرض وحملوا معهم من القمر نماذج من الأتربة والصخور. وما زالت الرحلات الفضائية تتوالى، واتجه طموح الولايات المتحدة نحو المريخ، فأرسلت إليه هذه المرة "روبوتاً" (= إنساناً آلياً) بدل أن ترسل ملاحاً فضائياً، على أن يقوم هذا الروبوت بتنفيذ الأوامر الصادرة إليه من الأرض.

3. الهندسة الوراثية:

في مطلع القرن الواحد والعشرين، ندخُل عالماً جديداً قد يقلب موازين الحياة الإنسانية ككل. إنها "الثورة البيولوجية الجديدة". فالصحف اليومية الأجنبية منها والمحلية، كثيراً ما تُخصص عموداً للحديث عن آخر ما قدّمته البيولوجيا بصورة عامة، والتكنولوجيا الطبية بصورة خاصة.
وكانت الإرهاصات الأولى لقيام البيولوجيا على بعض الأسس العلمية قد حدثت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، على يد مجموعة من العلماء، الذين كتبوا بحوثاً حول التصنيف الطبيعي للحيوانات والنباتات تبعاً لما بينها من أوجه شبه واختلاف. وكان لظهور الميكروسكوب أثر كبير على تطور البيولوجيا، ولكن الأمر لم يتعدى عملية التصنيف ودراسة الظواهر البسيطة المرتبطة بالكائنات الحية. إلى أن جاء لامارك (1744-1829) فرفض فكرة التصنيف الطبيعي للكائنات الحية، وكانت أهم نقطة في نظريته تدور حول علاقة التطور بالبيئة، إذ بين لامارك أن البيئة قد أثرت في الكائنات الحية لكي تجعلها متلائمة معها، وعلى الأصح، سلكت الكائنات الحية مسلكاً يكفل لها الانتفاع بالبيئة، كأن تعوم بدلا من أن تسير، ونتج عن ذلك أن نمت لديها أعضاء معينة، بتأثير التعود أو بتأثير عدم التدريب. واحتاج الأمر إلى خمسين عاماً لكي تأخذ نظرية التطور شكلها النهائي على يد عالم البيولوجيا دارون (1809-1882)، وتنحصر نظريته في ثلاث نقاط رئيسية: الصراع من أجل البقاء، بقاء الأصلح، الوراثة. وأكد على انتقال الصفات الوراثية الموجودة في الأفراد الأقوياء إلى أبنائهم، ومن ثم يجد الجيل الجديد أمامه فرصة للبقاء. ولم يتبين علمياً تأثير الوراثة حتى جاء فايزمان (1834-1914)، الذي بين أن هناك فرقاً حاداً بين الخلايا الجسدية وبين الخلايا الجرثومية أو الجنسية، إذ أن الخلايا الجسدية لا تستطيع أن تنتج سوى خلايا مشابهة لها، ولكن الخلايا الجرثومية (الحيوان المنوي والبويضة) تستطيع أن تنتج أفراداً جدداً. ولكن نقطة التحول الرئيسية كانت على يد مندل (1822-1884)، الذي كان

يجري تجاربه على نبتة البازلاء. وجوهر نظريته يكمن في النتيجة التي توصل إليها، وهي تدور حول الصفات الظاهرة في الكائنات الحية، إذ أن هذه الصفات التي نراها إنما هي ناتجة عن وحدات غامضة تنتقل بين أجيال النوع الواحد، ووجودها أو غيابها هو الذي يشكل فرقاً حادً في امتلاك صفات معينة، وبالتالي فإن كون البازلاء طويلة أو قصيرة يتوقف على هذه الوحدات. فإذا خلطنا بين هاتين الصفتين من خلال تزاوج البازلاء، فإن ظهور إحدى الصفتين بصورة غالبة يتوقف على مدى سيادة إحدى الوحدتين. ويطلق على الصفة الغالبة اسم الصفة السائدة، أما غير الظاهرة فتسمى الصفة المتنحّية.

ودخلت البيولوجيا في الثلاثين سنة الأخيرة مرحلة جديدة وخطيرة من تطورها، إلى درجة أن العلماء يؤكدون أنه إذا كان عصرنا هذا قد شهد تغيرات حاسمة في الحياة بفضل الفيزياء، فقد بدأت تظهر فيه بوادر تدل على أن العالم الذي سيحدث تغييرات جذرية في العالم خلال القرن المقبل هو علم الحياة. ففي مجال علم الأجنة-الذي يهتم بدراسة تركيب وتطور الكائن الحي منذ مرحلة التلقيح حتى لحظة الولادة-قدّم هذا العلم حلا لمشكلة العقم، إذ وجد وسيلتين للتغلب على هذه المشكلة هما: الإخصاب الصناعي، والإخصاب خارج الرحم (أطفال الأنابيب). وفي مجال الهندسة الوراثية والاستنساخ الوراثي، نجح العلماء مؤخراً باستنساخ النعجة "دوللي"، حيث أثار هذا الكشف ضجة عالمية لم تهدأ حتى هذا اليوم[8]. لأنَّ هذا التقدم جعل استنساخ الإنسان في متناول اليد، وهذا يثير أسئلة كثيرة وكبيرة من حيث الآثار المترتبة على ذلك، من الناحية الدينية والأخلاقية والحقوقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغير ذلك.

فكيف يكون حال الإنسان إذا ما وقعت تكنولوجيا الاستنساخ في يد غير مأمونة، من قبيل هتلر أو صدام أو غيرهما؟ وماذا لو أدى هذا إلى تخليق جرثومة لا يمكن السيطرة عليها؟ وهل من المشروع دينياً أو أخلاقياً التحكم بالصفات الوراثية للإنسان؟ ألن يلغي الاستنساخ مفهوم العائلة والأمومة؟ ألا يعتبر هذا مساساً بحرية الإنسان واستقلاله؟ وغير هذا من مئات الأسئلة الأخرى.

4. ثورة المعلومات:

واليوم مع ثورة المعلومات تنفتح أمام الإنسان إمكانات هائلة، تتجسد في القدرة الكبيرة على الفعل والتأثير، إنه الإنسان الذي تتيح له الأدمغة الآلية والتقنيات الرقمية التفكير والعمل على نحو عالمي، وبصورة عابرة للقارات والمجتمعات والثقافات.

ففي أوائل القرن التاسع عشر صنع "شارل باباج" أول حاسبة حديثة، وما لبثت بعد تطويرها وإدخال الترانزيستور والدوائر المندمجة فيها، أن مكّنت من إجراء العمليات الحسابية وتقديم الأجوبة حول المسائل المعقدة في ثوان. وفي عام 1944 تم صُنع أول حاسبة إلكترونية تعمل ذاتياً، وتوالى بعد هذا، ظهور أجيال جديدة من الكمبيوتر الحديث الذي يتميز بالسرعة الهائلة والقوة الكبيرة، واستطاع هذا الجهاز أن يمسك بقبضته حياة الإنسان المعاصر، وأن يطبع بصماته على سائر قطاعات الحياة، خاصة

[8] ذكرت وسائل الإعلام قبل أيام قليلة أن علماء البيولوجيا نجحوا في استنساخ عجل من عجل مُستنسخ أصلا، والهدف من ذلك التأكد من نظرية تزعم أن الجيل الثالث المستنسخ يكون أضعف من أصله.

تلك التي تتعلق باتخاذ قرار سريع في ظل مجموعة كبيرة من البيانات والمواقف المختلفة والاحتمالات المتباينة، التي يصعب فيها على الإنسان نفسه أن يتخذ فيها قراراً وبنفس السرعة. ثم قام فجأة علم جديد أطلق عليه "السوبرنطيقا"، الذي كان ثمرة جهود متواصلة ومضنية للعديد من رواد العلم، وإن كان "فينر" قد وضع الأساس الأول لاختراع العقول الإلكترونية، وهي آلات تصحح مسارها بنفسها، وتتبادل مع نفسها الأوامر، وتنفيذ الأوامر، وتؤدي أعمالا إنتاجية أعقد وأكمل من كل ما كانت تؤديه الأجهزة السابقة، كإعداد رواتب الموظفين، وفواتير الكهرباء والهاتف، تجميع أجزاء السيارة، فضلا عن توفيرها لأعداد كبيرة من الأيدي العاملة[9].

وفي نهاية الستينات من القرن العشرين، تبلورت في الولايات المتحدة الفكرة القائلة بضرورة توصيل مراكز الكمبيوتر المتوافرة في المنشآت العسكرية ببعضها، للمشاركة في البيانات المتوافرة لديها. ثم تطورت الفكرة فربطت أربع جامعات أكاديمية ببعضها بشبكة، بحيث إذا حصل عطل ما داخل الشبكة، فإن المعلومات تظل تُنقل عبر روابط أخرى.

وأدى هذا إلى أن أصبح كل كمبيوتر في مرتبة مساوية لأي كمبيوتر آخر داخل الشبكة، وأدى هذا الترتيب إلى إلغاء مركزية التحكم في الشبكة، فلا يوجد كمبيوتر مفرد له السيطرة على أجهزة الكمبيوتر الأخرى. وهكذا نشأت فكرة **الإنترنت** التي لها الآن النصيب الأوفر في اهتمام الناس في مختلف بقاع العالم.

وقد ساعد تطوير جهاز الكمبيوتر على تطور أجهزة الاتصالات الأخرى، وأدت تكنولوجيا الرقميات إلى تطور ما يطلق عليه بالأطباق الفضائية، التي تستقبل بث التلفزيونات من مختلف بقاع المعمورة، فأصبح الإنسان القابع في غرفته في الصين قادر على متابعة ما يجري-على الهواء مباشرة-في أوروبا. كما أدى ذلك إلى تطوير أجهزة الاتصال النقالة، فلم يعد هناك بقعة على وجه الأرض لا يمكن أن يتصل بها الإنسان.

وما يحدث الآن، هو أننا ننتقل مع عصر المعلومات بتقنياته، من حواسيب وشبكات وكاميرات، من عصر إلى آخر، ننتقل من الإنتاج الميكانيكي إلى الإنتاج الإلكتروني، ومن المواد الثقيلة إلى المواد الناعمة، ومن إدارة المصانع إلى إدارة المعلومات. وكذلك ننتقل من العمل اليدوي إلى عمال المعرفة الذين يقرءون الرموز والمعطيات المجردة على الشاشة، والأهم من ذلك، أننا ننتقل من أبجدية الحروف الأبجدية إلى أبجدية أخرى رقمية. ومع عصر المعلومات ننتقل من الواقع الفعلي إلى واقع أثيري اصطناعي، لا حدود له، حيث تنتقل المعلومة بسرعة الضوء، فيختصر الزمان، وتتهاوى الجغرافيا والمكان.

المحور الثاني: علاقة الإنسان مع الله

سيطرت الكنيسة الكاثوليكية في روما على مقدّرات أوروبا طوال العصور الوسطى، وهيمن البابا على شئون الحياة، مستنداً إلى امتيازات كثيرة يتمتع بها مع رجال الكنيسة، مستغلا القيود المفروضة على حرية الفكر والتعبير، وجهل الناس بحقيقة الدين المسيحي ومبادئه، بسبب احتكار

[9] وكما أن علماء البيولوجيا يطمحون إلى استنساخ كائن بشري، كذلك يطمح مهندسو الكمبيوتر إلى تصنيع كمبيوتر يفوق الإنسان ذكاء، بحيث يكون قادراً على أن يستفيد بنفسه من أخطائه السابقة دون تلقين. وإذا كان هذا ممكناً بالفعل-وهذا غير مستبعد أبداً-فالأمر يثير أسئلة فلسفية كثيرة كما أثارت قضية الاستنساخ تماماً.

الكنيسة لتفسير الكتاب المقدّس. وكانت نتيجة ذلك أن انغمس رجال الكنيسة في المفاسد، وصار همّهم جمع الأموال وتولّي الوظائف المدنية، وانصرفوا عن شؤون الدين، فعمّ الخوف وانتشرت الخرافات وازدادت كراهية الناس للكنيسة، مما هيّأ للثورة عليها، والعمل لتحرير العقيدة مما لحق بها من مفاسد.

وقد ارتبطت حركة الإصلاح الديني باسم الراهب الألماني **مارتن لوثر** (1483-1546)، الذي تعمّق بدراسة اللاهوت ودرس الكتب المقدّسة، وهالته الأحوال التي انحدرت إليها الكنيسة، وساءه-بشكل خاص-ما رآه من تحوُّل الدين إلى تجارة، تقوم فيها الكنيسة بتحصيل الهبات التي يدفعها الناس للحصول على صكوك الغفران، التي تُكفِّر عن ذنوبهم، وتمحو خطاياهم، وتمنحهم الجنة. فأعلن لوثر احتجاجه على مفاسد الكنيسة، ونشر خمساً وتسعين حجة ضد البابوية وصكوك الغفران، علّقها على باب الكنيسة عام 1517، فلم تلبث هذه الحجج أن ذاعت في كل ألمانيا، وكان من أهمها: رفض احتكار البابا لتفسير الكتاب المقدّس، وطلب إنقاص عدد الأديرة، وعدم الحج إلى روما، والسماح بالزواج لرجال الدين. فردَّت الكنيسة بحرمان لوثر من الغفران، وتجريده من الحقوق المدنية، وإهدار دمه. فقام هو خلال فترة لجوئه-في ظل حماية أمير سكسونيا-بترجمة الإنجيل إلى الألمانية، مما سهّل إطلاع الناس على تعاليم الدين الصحيحة، وانتشار حركة الإصلاح الديني في ألمانيا، واعتناق أغلب أمرائها المذهب البروتستانتي (حيث سُمِّي أتباع لوثر بالبروتستانت وتعني المحتجِّين)، ثم انتقال هذه الحركة إلى أوربا، وقيام حركات إصلاحية مماثلة في فرنسا وسويسرا وإنجلترا، وانتهى الأمر إلى انفصال كنيسة إنجلترا عن روما، وانهيار المذهب الكاثوليكي فيها.

وفي سويسرا تزعَّم حركة الإصلاح الديني جون كالفن (1509-1564)، وهو لاهوتي من مواليد فرنسا، اعتنق البروتستانتية وترك باريس إلى سويسرا تجنُّباً للتعذيب، ونشر كتاباً لخّص فيه معتقدات المذهب الديني الجديد، وما لبث أن أصبح حاكماً لمدينة جنيف، التي غدت في عهده أعظم مركز بروتستانتي في أوربا الوسطى.

وقد أسفرت حركة الإصلاح الديني في النهاية عن نتائج عديدة من أبرزها:

1. انقسام أوربا المسيحية إلى فئتين: كاثوليك وبروتستانت.
2. اشتعال الحروب الدينية الهوجاء التي عصفت بأوربا، وأدت في النهاية إلى الاعتراف بحرية الاعتقاد والتسامح الديني.
3. ترجمة الكتاب المقدّس إلى اللغات القومية الأوربية، وجعله في متناول الناس ليفهموا الدين من مصدره.
4. تنبُّه الكنيسة الكاثوليكية إلى ضرورة إجراء الإصلاح المطلوب، لاستعادة هيبتها ووحدتها من جديد، فبدأت حركة الإصلاح المضادة، مُتّبعة في ذلك عدة خطوات منها:
   - تعريف وتحديد العقيدة الكاثوليكية.
   - إنشاء جماعة اليسوعيين، وهي فرقة دينية منظمة، توفَّرت لها القوة لمساندة البابا، والتصدّي لمهاجمته ومنتقديه.
   - إنشاء محاكم التفتيش للقضاء على الخارجين على الكنيسة الكاثوليكية، ومحاربة البدع الدخيلة على الدين المسيحي.

- عقد مجمع ترانت في التيرول بإيطاليا، وإقرار الكتاب المقدّس كمصدر للإيمان، وجعل اللاتينية لغة الاحتفالات الدينية.
- إعطاء البابا سلطة واسعة، وإعلانه داعية للكنيسة الكاثوليكية[10].

المحور الثالث: علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان

ونستعرض هذا المحور في نقاط ثلاثة:
الثورات الكبرى، الحروب العالمية، الصراع الأيدلوجي بين القطبين، والذي ننتهي منه إلى المشهد العالمي الحالي.

أولا: الثورات الكبرى

شهد العالَم الغربي العديد من الثورات التي ساهمت في تغيير علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان، سواء على مستوى العلاقات السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية. ولم يكن تأثير تلك الثورات مقتصراً على البلدان التي قامت بها، بل امتدّت لتُؤثِّر على العديد من بلدان العالم الأخرى. ولعلّ أهمها: الثورة الإنجليزية، الثورة الفرنسية، الثورة الأمريكية.

الثورة الإنجليزية

قامت الثورة الإنجليزية في القرن السابع عشر ضد طُغيان الملَكية، وهي المعروفة باسم الثورة المجيدة. وقد تمثَّل نجاحها في عزل الملك جيمس الثاني وتنصيب ابنته ماري وزوجها وليم اورانج ملكين على إنجلترا. كما تمثّل ذلك النجاح بشكل واضح في "إعلان الحقوق" الذي أصدره البرلمان الإنجليزي عام 1689، وقد استعرض إعلان الحقوق المظالم التي ارتكبها الملك جيمس الثاني في حقِّ الشعب، واشترط على الملك الجديد عدم القيام بأي عمل يؤدي إلى الانتقاص من حقوق الشعب.
وكان من أهم ما تضمّنه إعلان الحقوق بالإضافة إلى ذلك:

- حقِّ الملك في التاج مستمد من الشعب الممثل في البرلمان، وليس من الله.
- ليس للملك إلغاء القوانين أو وقف تنفيذها أو إصدار قوانين جديدة، إلا بموافقة البرلمان.
- لا تُفرض ضرائب جديدة، ولا يُشكّل جيش جديد إلا بموافقة البرلمان.
- حرية الرأي والتعبير في البرلمان مكفولة ومُصانة.

وكان لهذه الثورة أثر كبير في الحياة في إنجلترا، حيث أنها قضت نظرياً وعملياً على فكرة حقّ الملوك الإلهي، كما أصبح البرلمان هو صاحب الكلمة العليا في شئون الحكم، كما كان لها أثر كبير خارج إنجلترا، حيث تطلّعت الشعوب في أوربا إلى تحقيق نظام الحكم البرلماني كما شاهدوه في النموذج الإنجليزي[11].

الثورة الفرنسية

تتميز الثورة الفرنسية بأنها كانت شاملة ذات أهداف سياسية واقتصادية ودينية، وقامت على أساس فكر جديد، وقد غيّرت الأحوال في فرنسا تغييراً شاملا، بحيث أصبح هناك فارق واضح بين الإنسان الفرنسي ومفاهيمه قبل الثورة وبعدها، كما غيّرت الثورة من شكل المجتمع،

---

[10] لمزيد من التوضيح أنظر: ول ديورانت، قصة الحضارة ج16 إلى الجزء 26.
[11] لمزيد من التوضيح أنظر: قصة الحضارة ج 32 ص 175 وما بعدها.

وقضت على الطبقة العليا، التي كانت تستمد سلطتها من عوامل الوراثة والدين، وأحلّت محلّها الطبقة الوسطى (البورجوازية)، التي استمدّت سلطتها من المال والفكر، وانتشرت مفاهيم الثورة في أوربا بخاصة والعالم بعامة، وأصبحت مبادئ "الحرية والإخاء والمساواة" التي دعت إليها على كل لسان.

فمن الناحية السياسية: كان ملوك فرنسا يحكمون بمقتضى نظرية الحق الإلهي التي تقول: إن الملوك يمثِّلون الله على الأرض، وأنهم يستمدُّون سلطتهم منه وليس من الشعوب، وبالتالي فليس لهذه الشعوب حقوق تجاه الملوك، بل يجب عليهم الخضوع لهم. وهكذا كان الملك هو الذي يُصدر القوانين، ويُعلن الحرب، ويُبرم السِّلم، ويفرض الضرائب، ويعيِّن القضاة، إلى غير ذلك من مظاهر السلطة. ولم يكن ذلك حال ملوك فرنسا فقط، بل كان كل ملوك أوربا يحكمون شعوبهم وفق هذه النظرية، ما عدا إنجلترا التي تمكن فيها البرلمان من انتزاع "إعلان الحقوق" الذي يقيد سلطات الملك كما أشرنا سابقاً.

وقد افتقدت فرنسا كل أنواع المشاركة الشعبية منذ عطّل لويس الثالث عشر (1610-1643) مجلس طبقات الأمة، الذي كانت تمثل فيه الطبقات الثلاث: الأشراف، رجال الدين، العامة. وكانت الملكية الفرنسية أوسع ملكيات أوربا ثراء، وأكثرها فخامة، وأقواها نفوذاً، وخاصة في عهد الملك لويس الرابع عشر-الذي حكم من 1643 إلى 1715-وكان يُلقَّب باسم "الملك الشمس"، والذي اشتُهر عنه قوله "أنا الدولة"، إلا أنَّ الحروب الكثيرة التي خاضها هذا الملك تحقيقاً لأطماعه في التوسُّع، وإسرافه في مظاهر الترف، واتباعه سياسية الاضطهاد الديني ضد الفرنسيين البروتستانت (الهيجونوت)-والذي نتج عنها هجرة حوالي ثلاثمائة ألف، كان معظمهم من الحرفيين ومهرة الصناع-كل ذلك أدى إلى إرهاق فرنسا وشعبها أشد الإرهاق، وخاصة من الناحية الاقتصادية.

ومن الناحية الاجتماعية: على الرغم من أن الملك لويس الرابع عشر بتوطيده دعائم الحكم المطلق قد دمّر جذور الإقطاع في فرنسا، إلا أن بقايا النظم الإقطاعية قد بقيت مسببة الآلام لفرنسا، بل إنه حتى سنة 1789 كان بعض الفلاحين في مستوى الأقنان (رقيق الأرض). وكان المجتمع الفرنسي ينقسم إلى طبقتين: الطبقة الممتازة، وكانت تضم النبلاء ورجال البلاط ورجال الدين، وكانت تُشكِّل أقل من 1% من مجموع الشعب. وطبقة العامة، وكانت تضُم باقي الشعب من فلاحين وعمال وتجار ومهنيين ...الخ.

وقد حظيت الطبقة الممتازة بالكثير من الامتيازات، مثل الإعفاء من الكثير من الضرائب، واحتكر النبلاء وظائف الدولة والكنيسة والقضاء والرُّتب العليا في الجيش والأسطول، كما تمتع الأشراف بالمزايا الإقطاعية الكثيرة التي كانت مفروضة على الفلاحين، والتي أدت إلى زيادة فقرهم وزيادة غنى الأشراف. كما كانت أراضي الكنيسة-وتبلغ خمس مساحة فرنسا-مُعفاة من الضرائب. كل هذا أدى في النهاية لأن يكون المطلب الرئيسي للشعب هو الحصول على الخبز.

ومن الناحية الفكرية: على الرغم من أحوال فرنسا السياسية والاجتماعية لم تكن أسوأ مما كانت عليه أحوال غيرها من الدول الأوربية،

فإن الحركة الفكرية التي شهدتها البلاد خلال القرن الثامن عشر، قد أيقظت المشاعر، وحرّكت عوامل السخط، وجعلت الناس يتطلعون إلى عصر جديد، وقد برز خلال هذا القرن، العديد من المفكرين، لعل من أبرزهم مونتسكيو وفولتير وجان جاك روسو.

أما مونتسكيو (1689-1755) فكان متعمقاً في المسائل الدستورية، وكان من أشهر مؤلفاته كتاب "روح القوانين"، الذي تناول أشكال الحكومة، وأشاد بالنظام السياسي الإنجليزي، حيث الحكومة مقيدة السلطة، لا مستبدة كالحكومة الفرنسية، ودعا إلى فصل السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية عن بعضها البعض. وقد أصبح هذا الكتاب مصدر إلهام للثوار وواضعي الدساتير في فرنسا خلال الثورة.

وكان فولتير (1694-1778) من أكثر كتاب عصره شعبية وشهرة، وكان يتمتع بموهبة فذة في الكتابة الساخرة اللاذعة. وقد وجه كثيراً من النقد إلى الكنيسة، وهاجم التعصُّب الديني من منطلق إنساني. وفي كتابه-في عهد لويس الخامس عشر-هاجم الأوضاع البالية في فرنسا، وخاصة الحكم المطلق ومفاسده، وسلّط عليها سخريته وتهكمه، مما أطاح بهيبة واحترام تلك الأوضاع. كما طالب فولتير بتوحيد القوانين ومساواة الناس جميعاً في الخضوع لها، وبالعدالة في توزيع الضرائب. وقد عانى فولتير من السجن في الباستيل، ومرارة النفي خارج فرنسا، لكنه استمر في الكتابة، حتى يمكن اعتباره أبرز ممثل لـ"عصر التنوير".

أما جان جاك روسو (1712-1778) فكان فيلسوفاً فرنسياً سويسرياً، حيث ولد في جنيف، وقضى طفولته وشبابه المبكر. وذهب إلى باريس وهو في سن الثلاثين، وبعد عدة رحلات استقر فيها وكتب فيها أهم مؤلفاته وهو "العقد الاجتماعي"، الذي يوصف بأنه "إنجيل الثورة"، وقد بدأه بالاحتجاج الصارخ على طغيان عصره قائلا: "وُلِد الإنسان خيِّر بطبعه، ولكن المجتمع هو الذي يُفسده". وتقوم نظرية روسو على وجود تعاقد بين الإنسان والمجتمع الذي يعيش فيه، وبمقتضى هذا العقد الاجتماعي يتنازل الإنسان عن جزء من حريته وحقوقه الطبيعية لهذا المجتمع، مقابل تعهُّد المجتمع بصيانة هذه الحقوق وحماية الأفراد. وكان روسو في كتاباته يدعو إلى الديموقراطية والحرية والمساواة[12].

- **الثورة الأمريكية**

كان من النتائج الهامة التي ترتبت على حركة الكشوف الجغرافية، تدفُّق الهجرة من أوربا إلى الأراضي المكتشفة، وقام المهاجرون الإنجليز بتأسيس المستعمرات على الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية. وقد تأسست أول مستعمرة إنجليزية في عام 1607 في جيمس تاون بولاية فرجينيا، ولم تكن تتألف في البداية إلا من حصن وكنيسة مخزن وصف من الألواح الخشبية. وتوالى منذ ذلك التاريخ وصول المهاجرين الإنجليز بشكل أساسي والمهاجرين الأوربيين بشكل عام. وقد تضافرت عدة عوامل في دفع حركة الهجرة وتنميتها، مثل الضيق الاقتصادي والاستبداد السياسي والاضطهاد الديني. كما شجع القضاة والقائمون على شؤون السجن المذنبين على الهجرة إلى أمريكا، بدلا من قضاء مدة العقوبة في السجن.

---

[12] لمزيد من التوضيح أنظر: فشر، تاريخ أوربا في العصر الحديث، تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، دار المعارف، الطبقة الثامنة، مصر. ص 5 وما بعدها.

وأنشأت طائفة البيوريتان (التطهريون) مستوطنة بليموث التي أصبحت مساتشوسيتس فيما بعد.
وهكذا نشأ في المستعمرات مجتمع جديد يرتبط بالولاء للوطن الأم إنجلترا، ولكنه يتمتع في الوقت نفسه بحرية سياسية لا مثيل لها في أي مكان في الأرض في القرنين السابع عشر والثامن عشر. حيث أن سكان هذه المستعمرات كانوا يحملون معهم أفكار البريطانيين الأحرار، كما كانت لهم مجالسهم النيابية المنتخبة، التي تضع القوانين وتفرض الضرائب وتحدد الاعتمادات المالية وتسيطر على الخزانة.
ورغم تنوُّع الأصول التي انحدرت منها شعب المستعمرات الأمريكية، إلا أن اللغة والثقافة والنظم الإنجليزية ظلت هي السائدة، ذلك أن المهاجرين الجدد كانوا يختلطون بالوافدين الإنجليز الأوائل، ويتخذون لغتهم ويعتنقون وجهات نظرهم، ونتج عن هذا الاندماج ظهور شعب جديد هو الشعب الأمريكي، الذي أخذ يتميز بالتدريج عن الشعوب الأوربية التي ينتمي إليها[13].
وبحلول عام 1733 تمكن المهاجرون الإنجليز من تأسيس ثلاثة عشر مستعمرة على ساحل المحيط الأطلسي، من نيوهامشير في الشمال إلى جورجيا في الجنوب. أما في مناطق أمريكا الشمالية الأخرى، فقد سيطر الفرنسيون على كندا ولويزيانا، التي ضمت منابع نهر الميسيسيبي الهائلة. وخاضت فرنسا وإنجلترا حروباً عديدة ضد بعضهما البعض خلال القرن الثامن عشر، ومع نهاية حرب الأعوام السبعة بينهما، كانت إنجلترا تسيطر على كندا وجميع مناطق أمريكا الشمالية الواقعة شرق نهر الميسيسيبي.
وبعد ذلك بفترة قصيرة دخلت إنجلترا-هذه المرة-مع مستعمراتها في صراع. ويرجع أول أسباب هذا الصراع إلى السياسة الإنجليزية في حكم المستعمرات، فقد كان لكل مستعمرة حاكم إنجليزي ينوب عن ملك إنجلترا، وكثيراً ما كان النزاع ينشُب بين الحكام الذين يمثلون المصالح الإنجليزية، وبين المجالس النيابية المنتخبة التي تمثل مصالح الشعب في المستعمرات. وقد أدى تكرار التصادم بين حكام المستعمرات وبين المجالس، إلى إيقاظ إحساس المستعمرات بما هنالك من تباعد بين المصالح الأمريكية والإنجليزية.
على أن أهم أسباب التذمُّر في المستعمرات الأمريكية كان يرجع إلى السياسة الاقتصادية التي اتبعتها إنجلترا هناك، فقد حتّم قانون الملاحة (التجارة) الذي صدر سنة 1651، نقل كافة الصادرات من المستعمرات إلى إنجلترا على سفن يملكها إنجليز، ويتولى تشغيلها إنجليز. كما حتّمت التشريعات التي تلت ذلك القانون أن يُعاد شحن صادرات المستعمرات إلى القارة الأوربية في الموانئ الإنجليزية. ونظمت استيراد السلع الأوربية إلى المستعمرات بطريقة تعطي أفضلية للمصنوعات الإنجليزية، وفرضت على المستعمرات إمداد البلد الأم بالمواد الخام، وأن لا تنافسها في

---

[13] من أهم خصائص هذا المجتمع الجديد ولعهم بالتطبيق، فما من نظرية علمية، أو فلكية أو طبيعية، إلا وتجد من يريد أن يطبقها في الواقع وفي الاختبار. كما يتميز هؤلاء بحب المجازفة والاستهتار بالمخاطرات، لاحظ تأثير ذلك في ظهور المنهج البراجماتي في التفكير الأمريكي.

الصناعة. كما خرجت إنجلترا من حرب السنين السبع مع فرنسا وهي تعاني من أزمة مالية حادة، نتيجة للنفقات الباهظة التي تكبدتها فيها، فلجأت إلى فرض ضرائب جديدة على سكان المستعمرات.
وكان هذان الإجراءان (القوانين التجارية، والضرائب الجديدة) هما السبب المباشر للثورة الأمريكية، وأصرَّ الأمريكيون على عدم دفع الضرائب إلا لمجالس المستعمرات التشريعية، والتفوا جميعاً حول شعار "لا ضرائب بدون تمثيل". فرفعت جميع الضرائب، فيما عدا الضريبة المفروضة على الشاي، فردت مجموعة من الشخصيات الوطنية على ذلك في عام 1773 بإقامة ما أصبح يعرف بحفل الشاي في بوسطن. فتنكر أفراد هذه المجموعة بأزياء الهنود الحمر، وصعدوا إلى السفن التجارية الإنجليزية، وألقوا بنحو 342 حاوية من الشاي في ميناء بوسطن. غير أن لندن وصفت حفلة شاي بوسطن بالهمجية، وأصدر البرلمان الإنجليزي قوانين تهدف إلى معاقبة بوسطن، بما فيها إغلاق ميناء بوسطن أمام حركة الملاحة، حتى يتم دفع ثمن الشاي، مما هدد كيان المدينة التي تعتمد على البحر.
فأثارت هذه القوانين القاسية الغضب، ودخل الجنود الإنجليز عام 1775 في مواجهة مع متمردي المستعمرات في مساتشوسيتس، وأعلن البرلمان الإنجليزي أن مساتشوسيتس متمردة ويجب قمعها، وقرر تعبئة موارد الإمبراطورية لضرب الثورة، مما أدى إلى ظهور مناخ الحرب في المستعمرات، وأقبل الناس على شراء الأسلحة والتدريب على استخدامها. وفي عام 1775 عُيِّن جورج واشنطن قائداً للقوات الأمريكية، وباستمرار الموقف الإنجليزي المتصلب، بدأ الرأي العام الأمريكي يتقبل فكرة الاستقلال عن الوطن الأم، وفي 4 يوليو 1776 قام الكونجرس (المؤتمر) بإقرار إعلان الاستقلال، الذي جاء فيه:"إننا نؤمن بأن الناس خُلقوا سواسية، وأن خالقهم قد وهبهم حقوقاً لا تقبل المساومة، منها حقّ الحياة والسعي لتحقيق السعادة".
ألهب إعلان الاستقلال حماسة الجماهير، وتبادل الأمريكيون مع القوات الإنجليزية الانتصارات والهزائم، وكان المنعطف في الحرب عام 1777 حين تمكن الجنود الأمريكيون من هزيمة الجيش الإنجليزي في نيويورك. وكانت فرنسا تدعم الأمريكيين بشكل سري، وترددت في الوقوف إلى جانبهم بشكل علني، حتى أثبت الأمريكيون أنفسهم في ساحة القتال. وفي عام 1783 انتهت الحرب رسمياً حيث اعترفت إنجلترا باستقلال الولايات المتحدة، وتنازلت عن كل الأراضي الواقعة شرق الميسيسيبي. وهكذا ظهرت إلى الوجود دولة جديدة أخذت في النمو والاتساع، حتى أصبحت بعد الحرب العالمية الثانية القوة العظمى في العالم، وكان من أهم القضايا التي واجهت الدولة الوليدة هو تحديد شكل الحكم، وحقوق المواطنين وواجباتهم، والروابط التي تربط الولايات بالدولة وبالولايات الأخرى. وفي مايو عام 1787 اجتمع مندوبون عن الولايات لإقرار دستور للبلاد، واختير جورج واشنطن بالإجماع ليكون رئيساً للدولة. وبرزت شخصيتان في فترة الثورة، وهما جورج واشنطن، البطل العسكري وأول رئيس للولايات المتحدة، الذي ترأس حزباً يؤيِّد وجود رئيس قوي وحكومة

مركزية، وتوماس جيفرسون[14]، المؤلف الرئيسي لوثيقة الاستقلال، الذي ترأس حزباً يفضل منح الولايات قدراً أكبر من السلطة، استناداً إلى النظرية التي تقول أن من شأن ذلك جعل الولايات أكثر تعرضاً للمساءلة تجاه الشعب.
ويعتبر دستور الولايات المتحدة من أوضح الدساتير التي أُعدّت في العالم وأكثرها فعالية، وقد ساعد هذا الدستور على قيام حكومة تتوازن فيها السلطات الثلاث، كما أقام التوازن بين الحكومة الاتحادية وحكومات الولايات، وتم الحفاظ على مرونة الدستور ومسايرته للتطور، بالنص على إمكانية التعديل والإضافة إلى الدستور، وأن وضعت بعض القيود التي تحميه من التغييرات المتسرِّعة.

ثانياً: الحروب الكبرى

بعد عام 1400م أدى اختراع البارود والأسلحة النارية إلى تبدُّل ميزان القوى لصالح حضارات المدن، فاتخذت زمام المبادرة بالهجوم على القبائل الرُّحّل، كما نتج عن اختراع الأسلحة النارية الازدياد الهائل في عدد ضحايا الحروب وفي تنوُّع أسبابها، فلم تعد بين البداوة والمدينة فقط، بل خرجت عن النطاق الإقليمي إلى النطاق العالمي.
وقد شهدت هذه الفترة فقط ما يزيد عن ثلاثمائة حرب، منها حوالي خمسة عشر حرباً شاركت فيها أقوى الأمم في ذلك الوقت. وتميزت الحروب التي دفعت فيما بين القرن السابع عشر حتى عشية الحرب العالمية الأولى بوحشيتها ودمويتها، بحيث لقي في تلك الحروب ما يقرب من أربعة عشر مليوناً مصرعهم!.

▫ الحرب العالمية الأولى

وقد أدى التطور الاقتصادي الكبير الذي شهدته أوربا في أواخر القرن التاسع عشر، إلى زيادة التنافس بين دولها من أجل السيطرة على مصادر المواد الخام والأسواق التجارية في الخارج لتصريف منتجاتها الصناعية.
فقد قاد ذلك إلى الصراع حول المستعمرات في آسيا وأفريقيا والباسيفيكي،وقامت دول أوربا الرئيسية مثل ألمانيا وفرنسا وبريطانيا وروسيا بالتسلُّح وإعداد الجيوش للحرب، وحشد ملايين الجنود على جانبي الحدود. وقامت التحالفات والتكتلات المتعادية، ودبَّ الخلاف بين دول أوربا حول المسألة الشرقية، ويُقصد بها الممتلكات العثمانية في أوربا، فقام النزاع العسكري حولها فيما سمي بـ"الحروب البلقانية". وكان السبب المباشر في قيام الحرب هو قيام طالب صربي باغتيال ولي عهد النمسا وزوجته في مدينة سراييفو عاصمة البوسنة في 28 يونيو 1914، فكان ذلك بداية الحرب العالمية الأولى.
واصطفَّ العالم في جبهتين: في الجبهة الأولى النمسا وألمانيا والإمبراطورية العثمانية وغيرها من الدول، وفي الجبهة الثانية وروسيا وفرنسا وبريطانيا ثم الولايات المتحدة وغيرها من الدول. وبدأت تدخُل

[14] في عام 1803 أصبح جيفرسون الرئيس الثالث للولايات المتحدة، ومع أنه كان يرغب في الحد من سلطة الرئيس، فإن الحقائق السياسية على الأرض حالت دون ذلك.

باقي الدول في الحرب، الواحدة بعد الأخرى، حتى بلغ مجموع الدول المشتركة فيها ثلاث وثلاثون دولة.
وقد استمرت الحرب لأكثر من أربع سنوات، وكانت حرباً مدمرة بالغة العنف والشراسة لم تشهد البشرية في تاريخها مثيلا لها من قبل، بفضل الأسلحة المستخدمة لأول مرة، كالطائرات والدبابات والغواصات والغازات السامة والمدافع بعيدة المدى...الخ. وسقط فيها ما يقرب من عشرة ملايين قتيل، وأكثر من عشرين مليون جريح، وانتهت بهزيمة ألمانيا وحلفائها[15].

- **الحرب العالمية الثانية**

خلال بعد الحرب العالمية الأولى ارتفعت أصوات كثير من المفكرين والمصلحين، بسبب شدة المعاناة وفداحة الخسائر التي تكبدتها الأطراف المتصارعة، مطالبة بإيقاف هذه المجزرة، وبعد الحرب استمرت صيحاتهم بأنه "يجب ألا تتكرر المأساة". لذلك اتجه التفكير بعد توقف الحرب إلى إنشاء مؤسسة دولية لتنظيم العلاقات بين الدول والشعوب، وإحلال السلام والتعاون فيما بينها بدل الحروب والخصام. فأنشئت "عصبة الأمم" في 1919، ونجحت هذه المؤسسة في أول الأمر في حل بعض المشكلات الدولية بين الدول الصغرى، ولكنها كانت تفشل أمام كل قضية تكون إحدى الدول الكبرى طرفاً فيها.
لكن الأزمة الاقتصادية العالمية عام 1929 أو ما يسمى بالكساد الكبير، كان الحدث الأبرز بين الحرب العالمية الأولى والثانية. فقد انهارت في الولايات المتحدة فجأة سوق الأوراق المالية، مما أدى إلى إفلاس كثير من البنوك والمؤسسات، وإلى انخفاض الأسعار بصورة حادة. فانتشر الخوف والهلع في أوساط رجال الأعمال، فاضطرت البنوك إلى طلب ديونها من أوربا، وتوقف رجال الصناعة عن التوسُّع. ولما كان التطور الصناعي في الدول الأوربية معتمداً بدرجة كبيرة على الاستقرار المالي في الولايات المتحدة، فقد أدى ذلك بدوره إلى إفلاس وانهيار كثير من المؤسسات والبنوك في أوربا، وإلى إغلاق المصانع وانتشار البطالة على نطاق واسع، وإلى انخفاض الأسعار في كافة أنحاء العالم.
فظهرت دكتاتوريات جديدة في العالم؛ ففي إيطاليا ظهر الحزب الفاشستي بزعامة موسوليني، وتلخّصت مبادئ حركته في محاربة الشيوعية والليبرالية على السواء، والإيمان بتفوُّق العنصر الروماني على باقي الأجناس. وتميزت الحركة الفاشية بالإفراط في استخدام العنف والقوة واللجوء إلى الضرب والقتل والتعذيب ضد كافة خصومهم السياسيين.
وفي ألمانيا تمكن هتلر من تأسيس حزب العمال الاشتراكي الوطني عام 1920، وقامت مبادئ حركته على أساس القومية العنصرية، بمعنى الإيمان بتفوُّق العرق الجرماني (الألماني) على جميع الأجناس، والدعوة إلى قيام ألمانيا الكبرى.
أما روسيا فقد سقط فيها نظام الحكم أثناء الحرب العالمية الأولى، لذا كان تأثير الكساد عليها محدوداً. فقد نجحت فيها الثورة الشيوعية عام 1917، بسبب فساد الحكم القيصري واستبداده، والخسائر المتلاحقة التي

---
[15] لمزيد من التوضيح أنظر: فشر، تاريخ أوربا في العصر الحديث ص 481-546.

حلّت بالجيش الروسي على يد اليابان ثم على يد الألمان، بالإضافة إلى سوء الحالة الاقتصادية. فظهر لينين وأعلن قيام النظام الشيوعي في روسيا، وسيطرة الدولة على جميع مصادر الثروة ووسائل الإنتاج، وإلغاء الملكية الخاصة. وبعد موت لينين عام 1924 تولى الحكم ستالين، الذي أصبح زعيماً للنضال الاشتراكي ضد الرأسمالية الغربية.

ولم تكن روسيا وإيطاليا وألمانيا هي الأنظمة الدكتاتورية الوحيدة، بل قامت في شرق أوربا أنظمة مشابهة في كل من المجر وبولوينا والنمسا ويوغسلافيا، بل وحتى في بعض دول الشرق الأوسط مثل مصطفى كمال (أتاتورك) في تركيا، الذي ألغى الخلافة العثمانية وأعلن النظام الجمهوري على أساس علماني، ورضا خان بهلوي في إيران، الذي ألغى حكم القاجار وتوج نفسه ملكاً على إيران عام 1925.

وفي معاهدات الصلح في أعقاب الحرب العالمية الأولى لم تحسب الدول المنتصرة (بريطانيا وفرنسا) حساب مصالح الدول الاستعمارية الأخرى (ألمانيا وإيطاليا واليابان)، فقد استحوذت على نصيب الأسد من مكاسب مادية ومستعمرات ونفوذ، علاوة على الشروط المذلة التي فرضت على الدول المهزومة.

وكانت سياسة العدوان التي هتلر في أوربا هي السبب المباشر في الحرب العالمية الثانية، ففيما بين 1939-1941 اكتسحت قواته بولندا ودول أوربا الغربية (الدانمارك والنرويج وبلجيكا وهولندا) واجتاحت ثلثي فرنسا حتى وصلت إلى باريس، فوقعت فرنسا صك التسليم، وقام الجنرال الفرنسي ديجول بإنشاء اللجنة الوطنية لتحرير فرنسا ومركزها لندن، فأخذت الطائرات الألمانية تغير على المدن البريطانية وتقصفها بالقنابل، وانضمت إيطاليا واليابان إلى ألمانيا، فشكلت محور: ألمانيا-إيطاليا-اليابان. وبعد ذلك قام الألمان بتوجيه ضربة مفاجئة إلى الاتحاد السوفيتي عام 1941، فأوقعوا بالقوات الروسية خسائر هائلة، حتى اقتربوا من موسكو، ثم هاجم اليابانيون بصورة مفاجأة جزر هاواي ودمروا الأسطول الأمريكي، مما أدى إلى دخول الولايات المتحدة في الحرب. وتقدم اليابانيون حتى اكتسحوا معظم بلاد شرقي آسيا وجزر المحيط الهادي.

لكن عام 1942 كان عام التوازن؛ فقد نمت قوة الحلفاء، وصمدت القوات الروسية أمام القوات الألمانية، بل تحول الصمود إلى هجوم بعد أن أنزل الجيش الأحمر الروسي بالقوات الألمانية خسائر فادحة في مدينة ستالين جراد، فقدوا فيها ثلاثمائة وخمسون ألف جندي. كما تلقت القوات الألمانية الإيطالية بقيادة رومل هزيمة أخرى على يد القوات البريطانية في الإسكندرية. وفي عام 1943 بدأت دول المحور الانهيار؛ ففي الغرب استطاع الحلفاء احتلال إيطاليا، وأنزلوا قواتهم في الأراضي الفرنسية، وأرغم الألمان على الانسحاب عن فرنسا وبلجيكا وهولندا، ثم تعقّبوهم إلى داخل ألمانيا، واستمر الجيش الروسي بالتقدم حتى حرر الأراضي الروسية كلها، واستمر بدوره في تعقب القوات الألمانية داخل أراضيها، وانتهى الأمر بانتحار هتلر وكبار قادته واستسلام ألمانيا دون قيد أو شرط، وكان الشعب الإيطالي قد أعدم موسوليني قبل ذلك، أما اليابان فلم تستسلم حتى ألقت عليها الولايات المتحدة قنبلتين ذريتين على مدينتي

هيروشيما وناجازاكي في عام 1945 فاستسلمت بدورها دون قيد أو شرط. وهكذا انتهت أعظم حرب مروعة عرفها التاريخ، حيث سقط فيها خمسون مليون قتيل.

وأدت الحرب العالمية الثانية إلى تعديل خريطة أوربا السياسية، وقضي على النازية والفاشية وحوكم زعمائها باعتبارهم مجرمي حرب، وقُسِّمت ألمانيا إلى قسمين، قسم غربي تبع النظام الرأسمالي، وقسم غربي يتبع النظام الشيوعي، وفصل بينهما بجدار برلين، الذي انهار بدوره بعد انهيار الاتحاد السوفيتي عام 1991. وتراجعت مكانة بريطانيا وفرنسا إلى الدرجة الثانية، واضمحل نفوذها الاستعماري، في حين خرجت الولايات المتحدة دون أن يتأثر بناؤها الاقتصادي والسياسي بفضل ضخامة مواردها وبعدها عن ميدان القتال. فظهرت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي كدول من الدرجة الأولى باعتبارهما أقوى دولتين في العالم[16].

ثالثاً: الصراع الأيدلوجي بين القطبين

ساهمت الحرب العالمية الثانية في تشكيل ملامح جديدة للعالم؛ فقد ظهر عنها ظهور الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة كقوتين عظميين، وتزعَّم أحدهما الكتلة الشرقية (الاشتراكية) والأخرى للكتلة الغربية (الرأسمالية)، فزادت حدة التوتر في العالم، فخرج العالم من الحرب العالمية الثانية ليدخُل فوراً في الحرب الباردة، فظهرت إلى الوجود الأحلاف العسكرية المتنافسة، وأدى السباق الرهيب إلى اختراع وتطوير أسلحة الفتك والدمار الشامل، وصارت الأحلاف العسكرية سمة هذا العصر، وأبرز تلك الأحلاف:

1. المعسكر الشرقي (حلف وارسو: ويشمل بالإضافة للاتحاد السوفيتي، بلغاريا، تشيكوسلوفاكيا، المجر، بولندا، ألمانيا الشرقية).
2. المعسكر الغربي (حلف الأطلنطي: ويشمل بالإضافة للولايات المتحدة، بريطانيا، فرنسا، كندا، النرويج، الدانمارك، هولندا، بلجيكا، لكسمبورج، إيطاليا، البرتغال، أيسلندا، اليونان، تركيا، ألمانيا الغربية).

ومن أهم أهداف حلف الأطلنطي -غير المعلنة- سياسة الاحتواء؛ بمعنى تطويق الاتحاد السوفيتي بسلسلة من الأحلاف والقواعد العسكرية من كل مكان حتى لا يتمكن من اكتساب مناطق نفوذ جديدة، وزيادة الضغط الداخلي عليه وعلى الدول الحليفة له في شرق أوربا، وتشجيع الحركات الداخلية المناوئة لهما، بالإضافة إلى السيطرة الأمريكية على دول أوربا الغربية الحليفة، والحيلولة دون انضمام أي من هذه الدول إلى الكتلة الشرقية.

ورغم الدمار والخراب الذي حلَّ بأوربا، وتراجعها إلى المركز الثاني، إلا أنها أخذت تنهض من جديد، بفضل مشروع "مارشال" الذي قررته الولايات المتحدة لمساعدة أوربا اقتصادياً، وبفضل التقدم العلمي والتكنولوجي الذي تشهده، وتوقيع اتفاقية "السوق الأوربية المشتركة" لدعم تطورها الاقتصادي ووحدتها السياسية.

لقد أدركت أوربا بأن جمع صفوفها لن يتم عن طريق السياسة أولا، فاتجهت صوب الاقتصاد، فوقعت ست دول أوربية (فرنسا، ألمانيا الغربية، إيطاليا، بلجيكا، هولندا، لكسمبورج) في عام 1957 على اتفاقية روما،

[16] لمزيد من التوضيح أنظر: فشر، تاريخ أوربا في العصر الحديث ص 641-736.

التي أطلق عليها اسم "السوق الأوربية المشتركة"، الذي تفرَّع عنها: مجلس الوزراء الأوربي، والبرلمان الأوربي، ومحكمة العدل الأوربية. لكن بريطانيا أقدمت عام 1959 بالرد على هذه الجماعة فأنشأت بالاشتراك مع السويد والنرويج والدانمارك وسويسرا، والبرتغال والنمسا، الرابطة الأوربية للتجارة الحرة، أو ما عُرف باسم مجموعة السبعة مقابل مجموعة الستة.

لكن بعد النجاح الذي أحرزته مجموعة الستة أخذت بريطانيا تسعى للانضمام إليها، إلا أن الجنرال الفرنسي ديجول رفض الطلب البريطاني، بسبب خشيته من أن تسيطر بريطانيا والولايات المتحدة على السوق، لكن في عام 1969 استقال ديجول مما سهَّل على بريطانيا دخول السوق.

وظهرت اليابان-بعد الهزيمة الساحقة التي حلّت بها-كقوة إقتصادية عظمى، وقد حققت تقدماً علمياً وصناعياً وتكنولوجياً كبيراً، جعلها من أولى الدول المتطورة. كما ظهرت الصين بعد الثورة الشيوعية بقيادة ماوتسي تونغ، كدولة كبرى تحاول أن تسلك مسلكاً مستقلا دون الارتباط بأي من الكتلتين. وبدت كثير من الدول المستقلة في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية-أو ما يسمى بدول العالم الثالث-كدول متخلفة بسبب المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتخلفها العلمي والتكنولوجي، وعجزها عن تنمية مواردها ورفع مستوى معيشة سكانها. فازدادت الفجوة العلمية والتكنولوجية والاقتصادية بين الدول المتقدمة وما يسمى بدول العالم الثالث.

وقد أدى فشل عصبة الأمم، واشتباك العالم كله في الحرب للمرة الثانية على مستوى جيل واحد، إلى سعي الحلفاء من أجل خلق منظمة دولية جديدة قادرة على مواجهة أي تهديد للسلام، فظهرت منظمة "الأمم المتحدة" عام 1945، وهي تهدف بالأساس إلى المحافظة على السلام والأمن في العالم، وحلِّ المنازعات بالطرق السلمية، وتنمية التعاون والعلاقات الودية بين الأمم، على أساس المساواة وحق تقرير المصير، واحترام حقوق الإنسان وحرياته الأساسية. وتنطوي منظمة الأمم المتحدة على عدة منظمات؛ هي:

- الجمعية العامة للأمم المتحدة: وهي الجهاز الرئيسي، وتتمتع فيه جميع الدول بالمساواة، إذ لكل منها صوتاً واحداً.
- مجلس الأمن الدولي: ويتكون من خمسة عشر عضواً، خمسة دائمون وهم (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي-وحالياً روسيا-وبريطانيا، وفرنسا، والصين)، وعشرة مؤقتون، ينتخب كل منهم لمدة سنتين. وتتمتع الدول الخمس الكبرى بحق النقض (الفيتو)، وبذلك يسقط أي قرار لا توافق عليه إحدى هذه الدول. وقد أسرفت الدول الكبرى في استخدام هذا الحق، مما أدى إلى شل قدرة المجلس عن القيام بوظائفه، ولهذا، يطالب الكثيرون بإلغاء هذا الامتياز الممنوح للدول الكبرى أو تقييد استعماله أو إشراك دول أخرى وفق المستجدات الدولية الراهنة، لكن تلك الدول ترفض التخلي عن هذا الحق المزعوم.

- مجلس الوصاية: حيث ظهر نظام الوصاية ليطبق على الأقاليم غير المتمتعة بالحكم الذاتي، للأخذ بيدها نحو الحكم الذاتي أو الاستقلال.
- محكمة العدل الدولية: وهي الأداة القضائية للأمم المتحدة، ومقرَّها مدينة لاهاي في هولندا، وتعرض عليها القضايا بصورة اختيارية، لكن تكون قراراتها مُلزمة إذا وافقت الدول المتخاصمة على ذلك مقدماً، وأحكامها نهائية وغير قابلة للاستئناف.
- الأمانة العامة للأمم المتحدة: وتتكوَّن من الأمين العام (= السكرتير العام للأمم المتحدة)، وموظفي الأمانة العامة.

ويمكن القول في النهاية بأن العالم مع نهاية الحرب العالمية الثانية، بدأ يعيش حالة صراع وسباق تسلُّح وحرب باردة بين القطبين الكبيرين: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، ويمكن تفسير كثير من أحداث تلك الحقبة على أساس التجاذبات التي كانت قائمة بين هاتين الكتلتين. فقد كان الصراع إلى الأمس القريب يؤرق بشبحه كافة سكان العالم، خصوصاً مع تطور وسائل نقل هذه الأسلحة الفتاكة من الجو إلى أعماق الأرض والبحار، بل وصل إلى الفضاء الخارجي من خلال ما يُطلق عليه بـ"حرب النجوم"[17].

لكن مع انتصار الولايات المتحدة وحلفائها في حرب الخليج الثانية، وانهيار الاتحاد السوفيتي، بدأ المشهد العالمي بالتغيُّر. فمع التطور التكنولوجي المذهل، خصوصاً في مجال المعلومات ووسائل الاتصال، بدأنا نسمع بما يسمى بـ**"العولمة"**. وهذا المصطلح يعني باختصار انهيار الحواجز الاقتصادية والسياسية والثقافية بين دول العالم، فرؤوس الأموال تنتقل بلمح البصر من أقصى العالم إلى أقصاه، والفكرة الفاضلة أو المنحرفة لا تقف بوجهها وسائل الرقابة التقليدية.

وهناك تفسيران للمشهد العالمي الحالي؛ التفسير الأول يؤكد الانتصار المطلق للولايات المتحدة، وظهورها كقوة عظمى لا تُقاس بها أي قوة أخرى، وبالتالي العالم يعيش قطباً واحداً. والتفسير الثاني يؤكد على أن الانتصار المطلق للولايات المتحدة هو مشهد عابر ومؤقت، وبأن العالم لن يستمر طويلا على هذا النحو، لأن ثمة قوى جديدة كبرى في حال البروز، من أهمها الصين واليابان وأوربا (خصوصاً ألمانيا وفرنسا)، والبعض يضيف في مرحلة لاحقة الهند وإيران، بل إن عصرنا الحالي-وفقاً لهذا التفسير- هو عصر الأحلاف والتكتلات، وبالتالي العالم يتهيأ لكي يعيش عصر الأقطاب المتعددة[18].

---

[17] أنظر : تاريخ العالم الحديث والمعاصر، للصف الرابع الثانوي (أدبي)، وزارة التربية، الكويت، 1988-1989.

[18] قد يقال أن هناك تفسيران آخران للمشهد العالمي الحالي، التفسير الأول هو التفسير القائم على أساس العولمة، والتفسير الثاني هو التفسير القائم على أساس الأقلمة. المقصود بالأول تفسير المشهد العالمي على أساس بروز عدد من هياكل السلطة البديلة التي تتنافس مع الدول في تحديد اتجاهات الاقتصاد السياسي العالمي. والمقصود بالثاني تفسير المشهد العالمي على أساس أن الدول ما زالت هي الأطراف الرئيسية في النظم السياسية والاقتصادية العالمية. أنظر: د. ريتشارد هيجوت، العولمة والأقلمة اتجاهان جديدان في السياسات العالمية، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية.

ثانياً: تحليل لأسباب أو نتائج تحوُّل الفكر الأوروبي

المحور الأول: علاقة الإنسان مع الطبيعة

بيكون: الهدف هو .....السيطرة على الطبيعة

لن نستطيع تحليل علاقة الإنسان الأوربي مع الطبيعة في العصر الحاضر، إلا إذا درسنا العلاقة بين العلوم الطبيعية والتكنولوجيا (= التقنية) طوال عصور المعرفة البشرية. ذلك لأن التداخل بين هذين الضربين من النشاط هو في أساسه ظاهرة جديدة، يتميز بها عصرنا هذا الذات عن غيره من العصور، بحيث لا نكون مبالغين إذا قلنا أنها السمة الأساسية المميزة لعلاقة الإنسان الأوربي مع الطبيعة في مرحلته الراهنة.

إن لكلمة التكنولوجيا عند كثير من الناس مفهوماً حديثاً، يجعلهم يظنون أن العالم لم يعرف التكنولوجيا إلا في عصر قريب، وأن التكنولوجيا هي المخترعات الحديثة الراقية التي غيرت معالم الحياة البشرية في العصر الحديث. ولكن واقع الأمر أن ظاهرة التكنولوجيا قديمة قدم الإنسان، فالمخترعات الحديثة لا تمثل إلا المرحلة الأخيرة لتطور طويل بدأ منذ فجر الوعي البشري.

وأول معنى يطرأ على ذهن الإنسان حين يحاول تعريف التكنولوجيا هو معنى التطبيق العملي. فالعلم معرفة نظرية، والتكنولوجيا تطبيق لهذه المعرفة النظرية في مجال العمل البشري. فالتكنولوجيا شيء يرتبط باليد أكثر مما يرتبط بالعقل، وإن كانت الصلة بين اليد والعقل قد أصبحت وثيقة في عصرنا الحاضر. والمعنى الثاني الذي تثيره كلمة التكنولوجيا هو أنها وسيلة تستخدم في العمل البشري. فمنذ أقدم عصور التاريخ البشري كان الإنسان يستعين بأدوات تساعده في عمله، وهي أدوات تستحق اسم التكنولوجيا. فتهذيب قطعة من الحجر أو المعدن وربطها بقطعة خشبية من جذع شجرة، واستخدامها فأساً لقطع الأشجار أو لتقليب الأرض هو نوع من التكنولوجيا. واستخدام النار في الطهي أو التدفئة أو في صهر المعادن كان كشفاً تكنولوجياً عظيم الأهمية بالنسبة إلى عصره. واختراع العجلة لتيسير عملية نقل البضائع أو انتقال الأشخاص أو محاربة الأعداء، كان في عصره انقلاباً تكنولوجياً لا يقل أهمية عن اختراع الصحون اللاقطة (الدش) في أيامنا هذه. إذن فكل ما كان الإنسان يستعين به للقيام بأعماله، يستحق أن يسمى تكنولوجيا.

ولا جدال في أن الوسائل التي يستعين بها الإنسان في أداء عمله تكمل ما لديه من قدرات، فالفأس مثلا لا تماثل اليد، لكنها تُكملها وتُساعدها في أداء عملها بمزيد من الكفاءة، وهكذا النار والعجلة. وهذا النقص في قدرات الإنسان يتغير في طبيعته ومداه تبعاً لظروف كل عصر؛ ومعنى ذلك أن العامل الاجتماعي له دور في تحديد مستوى التكنولوجيا المطلوبة، وقد يعبر عن هذه الحقيقة بأن "الحاجة أم الاختراع".

وبالجمع بين هذه العناصر كلها نستطيع أن نُعرِّف التكنولوجيا بأنها الأدوات أو الوسائل التي تستخدم لأغراض عملية تطبيقية، والتي يستعين بها

الإنسان في عمله لإكمال قواه وقدراته، وتلبية تلك الحاجات التي تظهر في إطار ظروفه الاجتماعية ومرحلته التاريخية الخاصة.
وهنا ننتقل إلى سؤالنا: **هل كان العلم الطبيعي مرتبطاً بالتكنولوجيا في جميع عصورها؟ إن أبسط نظرة يلقيها المرء على التطور التكنولوجي للإنسان عبر العصور المختلفة، تقنعه بأن الاتصال الوثيق بين العلم الطبيعي والتكنولوجيا ظاهرة حديثة العهد.** فكل ما توصل إليه الإنسان من كشوف واختراعات تكنولوجية في العصور القديمة، قد تحقق بمعزل عن العلم. ففي العصر الحجري كانت أهم الأدوات المستخدمة لمساعدة الإنسان في عمله مصنوعة من الحجر، وفي العصر البرونزي كانت أهم الأدوات المستخدمة مصنوعة من البرونز، وكذا الأمر في العصر الحديدي. ومن المؤكد أن الانتقال من عصر إلى آخر يعبر عن تطور تكنولوجي هائل. لكن هذه التطورات كلها لم تكن تدين للعلم الطبيعي بشيء؛ فالذين قاموا بها لم يكونوا علماء طبيعة، ولم يكونوا قد درسوا نظريات علمية معينة ثم طبقوها، فأتاح لهم تطبيقها التوصل إلى اختراع جديد. بل كانوا هؤلاء صناعاً مهرة، توارثوا خبراتهم جيلا بعد جيل، وخلال ذلك لم يكن المبدأ المتحكم في عملهم هو الدراسة، بل كان مبدأ المحاولة والخطأ والتجربة العشوائية في كثير من الأحيان. وهكذا فإن كشوفاً حاسمة في تاريخ البشرية، كالنار والخزف والنسج والعجلة والسفينة، تم تحقيقها على نحو مستقل تماماً عن العلوم الطبيعية.
ولو شئنا الدقة لقلنا أن التكنولوجيا هي التي كانت تؤثر في العلم الطبيعي طوال هذه الفترة، فكل مرحلة هامة من مراحل الكشف كان يسبقها تقدم تكنولوجي يمهد لها الطريق. فمن المؤكد مثلا أن تطوير **الساعة** بحيث تصبح جهازاً ميكانيكياً-بدلا من الساعة الرملية أو الشمسية أو المائية-يدل على الوقت بدقة، كان له دور كبير في علوم كثيرة يستحيل إجراء ملاحظاتها أو تجاربها إلا باستخدام توقيت دقيق. كذلك فإن **طواحين الهواء والماء**، التي أحرزت تقدماً ملحوظاً في العصور الوسطى، قد ساعد على ظهور علم الميكانيكا، الذي كان أهم العلوم الطبيعية وأدقها في المرحلة الأولى من تاريخ العلم الحديث. أما كشف **العدسات** فقد كان تأثيره العلمي حاسماً؛ إذ أن **التلسكوب** الذي استخدمه جاليليو كان أداة عظيمة الأهمية في أبحاثه العلمية النظرية في ميدان الفلك والطبيعة. وبالمثل فإن ظهور **الميكروسكوب** الذي تم على أيدي صناع بارعين في صقل العدسات، قد ساعد علماء آخرين على كشف عالم الأحياء الصغيرة الدقيقة.
إذن فطوال العصور الماضية من تاريخ البشرية لم تكن التكنولوجيا تدين للعلم الطبيعي في شيء، بل كان العلم هو المدين لها بالكثير. ويمكن القول أن هذا الوضع قد استمر حتى عصر الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر، بل ظل قائماً في مجالات معينة طوال جزء كبير من القرن التاسع عشر. لكن شيئاً جديداً كان قد بدأ يظهر في هذا المجال منذ بداية العصر الحديث في أوربا، أعني منذ القرن السادس عشر أو السابع عشر. هذا الشيء الجديد هو التفكير في استخدام العلوم الطبيعية للأغراض التكنولوجية، بحيث **لا تترك الكشوف التكنولوجية لبراعة الصانع**

الشخصية أو تدريبه الفعال، وإنما تعتمد على نظرية علمية مؤكدة. **وكان الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون رائداً في هذا الميدان، حين دعا إلى نوع جديد من العلم، لا يكون هدفه إرضاء الطموح النظري للعقل البشري، بل يكون هدفه تحقيق سيطرة الإنسان على الطبيعة، وتسخير قواها لخدمته.** وهذا يعني انهيار تدريجي للمثل الأعلى القديم للمعرفة، وهو "العلم لأجل العلم"، وظهور مفهوم جديد للعلم، يدور حول فكرة السيطرة على الطبيعة، والوصول إلى مزيد من التحكم في العالم الخارجي. وكان بيكون يعيش جواً جديداً، استطاع أن يكتشف فيه اتجاهات المستقبل قبل أن تظهر معالمها بوضوح. وكان هذا الجو هو انهيار الإقطاع في أوربا، وظهور مجتمع تجاري ثم رأسمالي له احتياجات تكنولوجية هائلة تعجز عن الوفاء بها أساليب الصُّناع القديمة، مهما كانت براعتهم.

وكان لابد من مضي فترة انتقالية منذ دعوة بيكون حتى الوقت الذي تحقق فيه التلاحم الوثيق بين العلم الطبيعي والتكنولوجيا. وخلال هذه الفترة **ظهر نوع جديد من التخصص، يحتل موقعاً وسطاً بين العالم الطبيعي والصانع، هو مهنة "المهندس" التي لم تكن معروفة من قبل. فالمهندس لم يظهر إلا في العصر الحديث، وهو يجمع في مهنته بين المعرفة النظرية وبين فهم التطبيقات العملية والقدرة على تنفيذها.** وربما كانت مهنة المهندس تطويراً لعمل الصُّناع المهرة، بعد أن اتضح أن البراعة الشخصية والخبرات المتوارثة لم تعد تكفي لمواجهة المتطلبات العملية للعصر الجديد. وعلى يد المهندسين حدثت في عصر الثورة الصناعية تلك التحولات الكبرى التي غيرت وجه العالم الحديث؛ فحلّت الطاقة البخارية محل الطاقة المائية أو طاقة الحيوانات، واستخدم الفحم وقوداً للمصانع على نطاق واسع، وأصبحت عمليات الغزل والنسيج تتم في مصانع ضخمة، لا في ورش فردية.

ومنذ ذلك الحين أخذ ذلك الاتجاه إلي الجمع بين العلم الطبيعي والتكنولوجيا يزداد قوة بالتدريج؛ إذ أن التطور الذي كان يستغرق مئات السنين على أيدي صُّناع مهرة، أصبح يستغرق سنوات قليلة عندما يتدخل فيه العلم ويحل محل الخبرات المتوارثة التي لا تتجدد إلا ببطيء شديد. وظهر نوع جديد من البحث العلمي، أخذ يكتسب أهمية متزايدة، ويحتل موقعاً وسطاً بين العلم النظري والصناعة، هو "البحث التطبيقي"، الذي يأخذ على عاتقه مهمة تحويل الكشوف النظرية الجديدة إلى مشروعات قابلة للتطبيق عملياً. وأصبحت المسافة الزمنية بين ظهور البحث النظري واكتشاف تطبيقاته العملية قد قلّت إلى أبعد حد في عصرنا الحالي. وقد أجرى بعض العلماء مقارنة بين الفترات الزمنية التي كان يستغرقها الوصول من الكشف العلمي النظري إلى التطبيق في ميدان الإنتاج، منذ عصر الثورة الصناعية حتى اليوم، فتبين لهم ما يلي: احتاج الإنسان إلى 112 سنة لتطبيق المبدأ النظري الذي يبنى عليه التصوير الفوتوغرافي (من 1727 إلى 1839م)، وإلى 56 سنة لكي يتوصل من النظريات العلمية الخالصة إلى اختراع التلفون (من 1820 إلى 1876م)، وإلى 35 سنة لظهور الاتصال اللاسلكي (من 1867 إلى 1902م)، وإلى 12 سنة

للتلفزيون (من 1922 إلى 1934م)، وإلى 6 سنوات للقنبلة الذرية (من 1939 حتى 1945م).

ومن المؤكد أن طول وقصر المدة الزمنية تتوقف على عدة عوامل من بينها مدى الحاجة الاجتماعية إلى هذا الاختراع، ومقدار الوقت والجهد والمال الذي يبذل من أجل التوصل إليه. إذن فالشُّقة تضيق تدريجياً بين العلم النظري والتكنولوجيا التطبيقية كلما اقتربنا من العصر الحاضر. بل إن المشكلة في أيامنا هذه قد أصبحت-في بعض الأحيان-هي مشكلة التسرُّع في التطبيق التكنولوجي قبل القيام بأبحاث كافية. وقد ذاعت في العالم، فضيحة العقاقير الطبية التي أنتجت على نطاق تجاري قبل أن تمر مدة كافية لإجراء التجارب التي تكشف عن أضرارها على المدى الطويل (لاحظ مثلا انتشار عقار الفياغرا حتى قبل أن يتسلّم مكتشفوه جائزة نوبل).

والخلاصة هو أن ما يميز علاقات الإنسان مع الطبيعة في عصرنا الحالي هو التداخل الوثيق بين العلم الطبيعي والتكنولوجيا، زالت معه الحواجز الزمنية التي كانت تفصل بينهما في القرن الماضي. لكن لابد أن نشير أن العلاقة بينهما جدلية أيضاً؛ فكما أصبحت التكنولوجيا في عصرنا الحاضر متقدمة إلى حد مذهل بفضل ارتكازها على أساس من البحث العلمي، فكذلك أحرز العِلم قدراً كبيراً من نجاحه السريع بفضل مساعدة التكنولوجيا؛ إذ أن التكنولوجيا هي التي تعطيه أجهزة أدق، وأدوات أفضل للبحث، وطرقاً أكثر فعالية لاختزان المعلومات واستعادتها بسرعة فائقة. ولعل أفضل مثال على ذلك هو الكمبيوتر كأداة تكنولوجية تقوم حالياً بدور هام للغاية في تطوير الأبحاث العلمية.

لكن ماذا ربح الإنسان من هذا التحالف الوثيق بين العلم الطبيعي والتكنولوجيا، وماذا خسر؟

1. هناك رأي يذهب إلى أن الآلة هي التي ستُحرِّر الإنسان من كل أشكال العبودية، وتأخُذ بيده في طريق المستقبل الذي يحلم به. وأصحاب هذا الرأي يتصورون أن تقدم التكنولوجيا-هو ذاته-ضمان ضد كل أنواع القهر، سواء أكان ذلك هو قهر الطبيعة للإنسان، أم قهر الإنسان للإنسان. وهكذا يدعو هؤلاء المتفائلون إلى إطلاق العنان للتقدم التكنولوجي بلا قيود، ويرون في التطور الذاتي التلقائي للآلة، مبشراً بعهد جديد يحقق للإنسان الوفرة ويعفيه من كل جهد[19].
2. والرأي الآخر يرى أن الوعد العظيم بالتقدُّم غير المحدود، وعد السيطرة على الطبيعة، والوفرة المادية، والسعادة القصوى للأغلبية العظمي، والحرية الشخصية غير المحدودة....هذا الوعد الذي كان محط الآمال ومنبع الإيمان للأجيال منذ بداية العصر الصناعي ....قد أخفق! فيوماً بعد يوم يتزايد-في المجتمع الصناعي-عدد الناس الذين أصبحوا مدركين لما يأتي:

- أن إشباع كل ما يعنّ للناس من رغبات، بغير قيود، لا يوصل للحياة الطيبة، وليس هو السبيل إلى السعادة، ولا حتى إلى المتعة القصوى.

[19] فؤاد زكريا، التفكير العلمي ص 183-197

- أن التقدم الصناعي ظل مقتصراً على الأمم الغنية، وأن الهوة التي تفصل الأمم الغنية عن الأمم الفقيرة تزداد يوماً بعد يوم.
- أن التقدُّم التكنولوجي نفسه قد خلق مخاطر إيكولوجية (= بيئية)، ومخاطر الحرب النووية. وهذه وتلك، أو كلتاهما معاً، يمكن أن تكون السبب في إنهاء كل أشكال الحضارة، وربما كل أشكال الحياة على ظهر هذا الكوكب.
- أن حلمنا بأن نكون المسيطرون على الطبيعة قد انتهى، وذلك عندما بدأنا ننتبه إلى أننا جميعاً قد أصبحنا مجرد تروس في الآلة البيروقراطية، وأن الصناعة والحكومة وأجهزتهما الإعلامية هي التي تشكل مشاعرنا وأفكارنا وأذواقنا وتتلاعب بها كما تريد[20].

فالمجتمع الصناعي يكشف عن اغتراب الإنسان وتشيُّئه، بمعنى أن الإنسان في ظل علاقات العمل الصناعية والرأسمالية قد تحوّل إلى مجرد عنصر أو جزء ضئيل من جهاز الإنتاج الهائل، وصار عجلة صغيرة مجهولة قابلة لأن يستبدل بها غيرها داخل العالم التكنولوجي الضخم، الذي صار يصعب الإحاطة بشبكته المعقدة أو بالقوى التي تحرك خيوطه. فالإنسان واقع تحت ضغط الآلات التي تفرض عليه ألواناً من السلوك النمطي الرتيب، وتسدُّ عليه منافذ المبادرة الشخصية الحرة، وتعوق تحديده لذاته، وتخنق فاعليته الخلاقة[21]. وظهر الاغتراب عندما تأكد للرأسماليين أنه من مصلحتهم أن تقوم إدارة المصنع بالكثير من العمل الذي كان متروكاً للعمال في الماضي، وذلك بأن تقوم بجمع كل المعارف التقليدية التي يستحوذ عليها العمال، وتختزلها إلى مجموعة واضحة ومحددة من القواعد والقوانين والإجراءات التي تحدد للعمال مهام عملهم اليومي، وبالتالي يتجرد العامل من مسؤولية تصميم وتخطيط عمله[22]، وهذا يعني في النهاية تجريد أو تقليل قيمة مهارة العمال في سوق العمالة.

ويصف أحد علماء الاجتماع-من الغربيين-العمل الصناعي في الرأسمالية المعاصرة على النحو التالي: "حاول أن تضع 13 دبوس صغير في 13 ثقب صغير 60 مرة في الساعة، ثماني ساعات يومياً. وبعد لحام 67 شريحة صلب في الساعة، ستجد نفسك يوماً ما تواجه خط تجميع جديد، يحتاج إلى 110 ساعة. قم بتركيب 100 سلك في 100 سيارة كل ساعة، أغلق 7 أقفال 3 مرات في الدقيقة. قم بعملك في الضوضاء وسط الزيت والمذيبات والغبار المعدني. تفاوض في حق السماح بوقت للتبول، أو خذ استراحة خاطفة خلف مكبس كبير حتى لا تكسر الروتين أو الإيقاع الذي تسير عليه وتفقد علاوتك. أسرع لتكسب وقتاً لكي تمسح أنفك وتخرج الغبار من عينك. ضع طعامك في وعاء الشحوم، لأن المقصف يبعد عن مكان عملك بمسافة سير لمدة 10 دقائق، بينما الوقت المسموح به لوقت الغداء 40 ثانية فقط. وأنت عندما تتخطى عتبة المصنع، تفقد حرية الكلام، وحرية الرأي، والحق في عقد لقاءات مع الآخرين داخل المصنع. قم بالطاعة دون مناقشة، وعاني من العقوبة دون أن يكون لك الحق في الشكوى، وقم بأسوأ الأعمال إذا لم يعجب المدير وجهك....وسوف تصل إلى بيتك وأنت خائر القوى، وعاجز عن القيام بأي شيء سوى مشاهدة

---

[20] إريك فروم، نتملك أو نكون (= الإنسان بين الجوهر والمظهر)، المدخل.
[21] عبد الغفار مكاوي، مدرسة فرانكفورت ص 25
[22] المصدر السابق، ص 170

التلفزيون، قائلا لنفسك إنك ستموت كشخص غبي وساذج، ولتعلم أنك ستظل عامل خط تجميع بدءاً من سن الثانية والعشرين إلى سن الستين، ما لم تتعرض للقتل أو العجز قبل ذلك...إنها حياة طويلة يمكن أن تدفعك إلى أن تحطم كل شيء يوماً من الأيام، ولتشعر بالمرارة لأنك حوّلت حياتك لمهنة لكي تعيش، وأقصى شيء تخشاه هو الغضب الذي يتفجر داخلك بدرجة يمكن أن توصلك إلى الموت في النهاية. حتى أنه في آخر الأمر يكون الناس على حق عندما يقولون: لا تستطيع أن تفعل أي شيء، فقد استمر هذا الوضع لمدة خمسين عاماً، فلماذا يجب أن يتغير الآن"[23].

إن استمرار التقدُّم العلمي والتكنولوجي، ووصوله إلى مستويات هائلة من الآونة الأخيرة، جعل البعض يرفع صوته محذراً من **أن وسائلنا التي نستخدمها في السيطرة على الطبيعة، قد سيطرت ذاتها علينا، وخلقت لدينا نوعاً جديداً من العبودية**[24]، وبدأ هؤلاء المفكرون يشككون في جدوى فكرة "السيطرة على الطبيعة" بالمعنى الذي استخدمت به منذ أوائل العصر الحديث، ويدعون إلى الاستعاضة عنها بفكرة "التعاون مع الطبيعة"[25].

المحور الثاني: علاقة الإنسان مع الله

نيتشه: لقد مات الله!

كلما توطّدت علاقة الإنسان الأوربي مع الطبيعة، وزاد إيمانه بها، ظهرت في ذهنه تساؤلات عجزت المؤسسة الدينية عن الإجابة عليها. فبدأت أوربا بالتدريج تعيش صراعاً مريراً بين العلم والدين، وبدت المعادلة القائمة-من خلال تطور الأحداث-طرديّة بين النظرة الكونية العلمية والنظرة الكونية الدينية؛ بمعنى أنه كلما زاد رصيد النظرة العلمية في أذهان الناس، كلما نقص في المقابل رصيد النظرة الدينية. وكانت النتيجة تتجه لصالح النظرة العلمية، وبالتالي إيمان الأوربي في عالم الطبيعة، قاده في البدء نحو الشك في وجود عالم آخر وراء تلك الطبيعة المحسوسة (الميتافيزيقا)، ثم قاده في النهاية إلى استبعاد ذلك العالم نهائياً. وبما أنّ الإيمان بالله هو إيمان بموجود ينتمي إلى العالم غير المحسوس، إذن من الطبيعي أن يكون الإيمان بالله قد استبعد بدوره من العقل الغربي.

لكن لماذا اتجه الإنسان الأوربي ذلك الاتجاه؟ لماذا كفر عملياً بعالم آخر غير العالم المحسوس؟ لماذا أخرج الإنسان الأوربي الله من ذهنه؟ ثم أخرجه من مجال علاقاته الاجتماعية؟[26] لماذا حصل صراع بين العِلم والدين؟ هذا ما نحاول الإجابة عليه من خلال النقاط التالية.

1. قصور المفاهيم الكنسيّة عما وراء الطبيعة:

سُلِّمت مسألة الله وعلاقة الإنسان معه في القرون الوسطى إلى القساوسة، حيث طرحوا سلسلة من المفاهيم الطفولية عن الله، ليس

---

[23] سعد عيد مرسي،مدخل في علم الاجتماع الصناعي ص 172-173

[24] وسوف نشرح هذا الرأي على نحو أكثر تفصيلا عندما نُحلّل تأثير التطور التكنولوجي على علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان.

[25] فؤاد زكريا، التفكير العلمي ص 262-263

[26] في الفلسفة يسمى المذهب الذي يستبعد العالم غير المحسوس بالمذهب التجريبي، وفي السياسة يسمى الاتجاه الذي يستبعد الدين أو الله عن الحياة السياسية بالعلمانية.

على نحو لا يتفق مع الحقيقة فحسب، بل على نحو مُنفِّر تماماً. فقد أعطت الكنيسة صورة إنسانية لله، وعرضته للآخرين في قالب بشري. وقد تلقى الناس صورة الله في قالبها البشري منذ الطفولة، وتحت تأثير النفوذ الديني للكنيسة، ولكنهم بعد نضجهم العلمي أدركوا أن تلك الصورة لا تتفق مع الموازين العلمية والعقلية الصحيحة. ومن زاوية أخرى؛ لم يكن أغلب الناس يمتلكون قدرة كافية من النقد ليعوا أنه يمكن أن تمتلك المسائل المتعلقة بما وراء الطبيعة نصيباً من الواقع وصورة معقولة، وأن الكنيسة هي الخاطئة. ولذا فإنهم لما رأوا أن المفاهيم الكنسية لا تتلاءم والمقاييس العلمية، أنكروا الأمر من أساسه.

فمثلا يقول فلاماريون في كتابه "الله في الطبيعة": إن الكنيسة عرضت الله على أساس أن المسافة بين عينه اليمنى وعينه اليسرى تعادل ستة آلاف فرسخ"! ومن البديهي أن الناس الذين يملكون حظاً من المعرفة، لا يمكنهم الاعتقاد بهذا الموجود. وينقل أيضاً فلاماريون عن أوجست كونت قولا، يُعبِّر عن الصورة الإلهية التي كان يتصوّرها آنذاك العلماء أمثال كونت في المحيط الكنسي، إذ يقول كونت: "لقد عزل العِلم أبا الطبيعة (= الله) عن عمله، وساقه إلى الانعزال، بعد أن قدّر له خدماته المؤقتة، وقاده إلى قمة عظمته". ويقصد بذلك أنَّ كل حادثة كانت تحدث في الماضي، كانت تُعلَّل بالاستناد إلى الله، فعندما تُصيب الشخص الحمى، يثور السؤال لماذا أصابته الحمى؟ ومن الذي أوجدها؟ وكان يأتي الجواب حينذاك: هو الله، هو الذي أوجد الحمى. ولم يكن هذا الجواب يعني أنَّ الله هو الذي يُدبِّر الكائنات ويحرِّكها، ومن هنا نُسبت إليه الحمى. بل إنَّ ذلك الجواب يعني أنَّ الله مثلُه مثل الموجود الخيالي المهول، أو الساحر الذي يسحر من عالم الغيب، صمَّم فجأة وبدون أية مقدمات، على أن يخلُق الحمى فخلَقها! في حين جاء العِلم بعد ذلك، فاكتشف أنَّ المرض لم يأت به الله، وإنما أوجده نوع خاص من الميكروبات. وهنا يتراجع الله خطوة إلى الوراء، ثم يكتشف العِلم سبب مجيء الميكروبات، فيتأخّر الله خطوة أخرى .....وهكذا يكتشف العِلم السبب تلو الآخر، ويتراجع الله خطوة خطوة بالمقدار الذي اتّسعت فيه العلوم. وهكذا امتلك العِلم صفة التعميم، وكشف العديد من أسباب الحوادث، وحصل اليقين بأنَّ تلك الحوادث المجهولة الأسباب تمتلك أسباباً من سنخها، فأقال الإنسان الله عن عمله، لأنه قد استنفذ غرض الإيمان به، فلا محلَّ له في أسباب الوجود. فعاد الله شبيهاً بعامل في مؤسسة، أُسند إليه عمل مهم- اضطراراً-حتى إذا تواجد الأفراد ذوي الخبرة والاطلاع الأكثر، فإنه يفقد مهامه بالتدريج، حتى يبقى بلا عمل، وحينها فإنَّ رئيس مجلس إدارة المؤسسة سيُقدِّم له شكر مجلس الإدارة على خدماته السابقة، ويقبل عذره للاستقالة إلى الأبد، أو يُحيله إلى التقاعد!

2. العُنف الكنسي:

كان للكنيسة دور آخر مهم في إضعاف علاقة الإنسان بالله في أوربا، وهو دور تحميل العقائد والنظريات الكنسية الخاصة في المجالات الدينية والعلمية على الناس، وسلبهم أي نوع من أنواع الحرية العقائدية في هذه المجالات. فإذا كان الكتاب المقدس يؤكد على أن "الأرنب البرية تمضغ

العشب"، فلابد من الالتزام بذلك، حتى لو كانت الملاحظة العلمية تدحض تأكيد كهذا.
وقد كانت للكنيسة-علاوة على العقائد الدينية الخاصة-سلسلة من المبادئ العلمية حول العالم والإنسان، كان لها جذور فلسفية يونانية وغير يونانية على الأغلب، ثم تقبَّلها بالتدريج العلماء الكبار في الدين المسيحي، فعادت أصولا مسيحية إلى جنب أصول العقائد المذهبية. فلم تكتف الكنيسة بمتابعة من يعلن ارتداده، وطرد كل من ثبت ارتداده من المجتمع المسيحي، وإنما أنشأت جهازاً بوليسياً يتتبّع عقائد الناس، ويحلل ما في ضمائرهم، ويسعى لأن يثبت التهمة بأدنى مناسبة، فما أن تبرق له أقل علامة على مخالفة مفكر لتلك العقائد الدينية، حتى ينصبّ العذاب الأليم عليه بشكل فظيع.
لقد كان الكتاب المقدس وعقائد الإيمان الكاثوليكي وتعاليم أرسطو فوق الشك، فلا يجوز للفكر الأصيل تجاوز التخوم التي وضعتها، ومسألة ما إذا كان يوجد بشر في القطبين، أو كان للمشتري توابع، أو فيما إذا كانت الأجسام تسقط في معدل سرعة متناسب مع كتلتها، كانت هذه مسائل لا تُقرِّرها الملاحظة، بل الاستنتاج من الكتاب المقدس أو من أرسطو. لقد كان الصراع بين الدين والعِلم صراعاً بين المرجعية والملاحظة، لكن أرغم اللاهوت تدريجياً على أن يكيّف نفسه مع العِلم، وأوّلت نصوص الكتاب المقدس غير الملائمة تأويلا رمزياً أو مجازياً. ونقَل البروتستانت كرسي السلطة في الدين، أولا من الكنيسة والكتاب المقدس إلى الكتاب المقدس وحده، ثم إلى الروح الفردية، وأقرّ تدريجياً بأن الحياة الدينية لا تعتمد على أحكام بخصوص الحقائق مثلا، كالوجود التاريخي لآدم وحواء[27]، وهكذا بعد أن سلّم الدين حصونه الأمامية، حاول أن يحافظ على القلعة سليمة، أما إذا كان الأمر قد تمّ بنجاح أو لا فهذا خاضع للنقاش[28].
وقد كانت الحرب الأولى الحامية الأكثر شهرة بين الكنيسة والعِلم هي الجدل الفلكي فيما إذا كانت الأرض أو الشمس مركز ما ندعوه الآن بالمجموعة الشمسية. كانت النظرية الأرثوذكسية السائدة هي نظرية بطليموس القائلة بأن الأرض مستقرة في مركز الكون، بينما الشمس والقمر والكواكب ومجموعة النجوم الثابتة تدور حولها. وكانت النتيجة أن محكمة التفتيش تصدّت لعلم الفلك، ووصلت بالاستدلال من نصوص معينة في الكتاب المقدس إلى حقيقتين مهمتين: "إن الفرضية الأولى القائلة أن الشمس مركز الكون ولا تدور حول الأرض، غبية وسخيفة وزائفة في علم اللاهوت وهرطوقية، لأنها تتناقض بوضوح مع الكتاب المقدس.....والفرضية الثانية القائلة بأن الأرض ليست المركز ولكنها تدور حول الشمس، هي سخيفة وكاذبة فلسفياً، لأنها على الأقل من وجهة نظر لاهوتية مناقضة للإيمان الصحيح". وعليه أمر البابا جاليليو بأن يمثل أمام محكمة التفتيش، التي طلبت منه أن يرتد عن أخطائه، وهذا ما فعله في 1616م، ووعد قانونياً بأنه سيتخلى عن التمسك بالرأي الكوبرنيكي وعن تعليمه، سواء كتابياً أو شفهياً. وبأمر من البابا وضعت جميع الكتب التي تُعلِّم أن الأرض تدور، على قائمة الكتب الممنوعة[29].

[27] لأنه وكما سنلاحظ بعد قليل، طرح علماء الأحياء نظريات فُهم أنها تناقض ما يؤكده الكتاب المقدس.
[28] برتراند رسل، الصراع بين العلم والدين ص 7-8
[29] المصدر السابق، ص 19-20

ومن هنا لم يكن العلماء والمفكرون ليجرءوا على التفكير فيما لا تراه الكنيسة واقعاً علمياً؛ أي كانوا مُكرهين على التفكير بما تُفكِّر به الكنيسة. وقد خلق هذا الضغط الشديد على الأفكار من القرن الثاني عشر إلى القرن التاسع عشر، في أقطار مثل فرنسا وإنجلترا وألمانيا وهولندا والبرتغال وبولندا وأسبانيا، خلق ردود فعل سيئة جداً على علاقة الإنسان الأوروبي بالله. لقد أنشأت الكنيسة محاكم "تفتيش العقائد"، واسمها يدلّ على الغرض منها، وقبل تشكيل ديوان المحاكمات في مدينة، يُعلن من على المنابر والكنائس الأمر الصادر بالإيمان، ويُطلب من الناس أن يُخبروا أعضاء محكمة التفتيش عن أية معلومات تخصُّ أيّ مُلحد أو مُبتدع، فكانوا-بهذا-يحرِّضونهم على النميمة واتهام الجيران والأصدقاء والأقارب، ويُضمن للنمامين أن تبقى أسرارهم طي الكتمان. أما من كان يعرف ملحداً ولم يفضحه وعمل على إخفائه في منزله، فإنه سيُبتلى باللعن والتكفير. وكانت وسائل التعذيب تختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة؛ فتارة كانوا يشُدّون يدي المتهم إلى الخلف ثم يُعلِّقونه بهما، كما أن من الممكن أن يوثقوه وثاقاً محكماً بحيث لا يقدر على الحركة، ثم يضخّون الماس في بلعومه حتى يختنق، كما كان من الممكن أن يشدّوا الحبال في يديه ورجليه بقوة هائلة، بحيث تخترق الحبال اللحم فتصل إلى العظم. وبلغ عدد الضحايا من عام 1480-1488م أي خلال ثمان سنوات ما يُقدّر بـ 8800 محروق و 96494 محكوماً بالأشغال الشاقة والعقوبات الأخرى.

3. نظريات التطوُّر الحيوي:

ومن جملة المسائل التي كان لها تأثير كبير في إضعاف علاقة الإنسان الأوربي بالله، مسألة توهُّم التضاد والتنافي بين "مبدأ الخلقة"-كما يطرحه الدين-من جهة، ونظريات التطور الحيوي-كما طرحه بين علماء الأحياء-من جهة أخرى. وبعبارة أخرى توهُّم أن الخلقة مساوية مع كون الوجود آنياً ودفعياً، وأن التطور مساوق مع عدم وجود خالق للأشياء.

وما يعرضه لنا التاريخ هو انتشار بعض الأفكار في أوربا تتحدث عن أن العالم الذي أوجده الله، يستلزم أن تكون جميع الأشياء ثابتة وبنمط واحد أبداً، فلا يحدث أي تغيير في الكائنات، وخصوصاً في أصول الكائنات-أي الأنواع-فالتطور إذن غير ممكن، وخصوصاً التطور الذاتي، أي التطور المستلزم لتغيُّر نوعية الشيء. في حين أن المشاهد أنه كلما تقدّم العِلم وتوسعت أبعاده، ثبتت وتبرهنت مسألة التطور في الأشياء، وخصوصاً في الأحياء. وهذا يعني أن العلم-وبالأخص العلوم البيولوجية-تخطو بالاتجاه المعاكس للنظرة الدينية.

وكما نعلم فإن نظريات لامارك ودارون-خصوصاً دارون-قد أثارت ضجة كبرى في أوربا. فقد عُرضت نظريات دارون على أنها نظريات إلحادية مائة بالمائة، في نفس الوقت الذي كان فيه دارون نفسه شخصاً معتقداً بالله، ويُقال أنه كان يضم الكتاب المقدس إلى صدره أثناء الاحتضار. وهنا يمكن أن يقال بأن نظريات التطور في علوم البيولوجيا، وخصوصاً فرضية دارون حول أن أصل الإنسان من القرد-وإن كانت هذه الفرضية قد رُدّت بعد ذلك-إنما اعتبرت إلحادية، لأنها تخالف ما جاء في الكتب الدينية المقدسة، فالكتاب الديني عموماً يؤكد أن خلق الإنسان بدأ من إنسان أوّل اسمه "آدم"، ويظهر منها أن آدم خلق مباشرة من تراب، ولذا فلم

يكن باطلا يُعرّف دارون وكل أنصار التطور الحيوي بأنهم منكرون لله. إذ لا يمكن خلق التلاؤم-في نظرهم-بين الاعتقاد بالله والاعتقاد بمبدأ التطور، فلابد أن يتم اختيار أحد المبدأين ويُطرح الآخر، فطُرح الاعتقاد بالله وتم التمسك بمبدأ التطور الحيوي!.

4. معارضة الغرائز باسم الدين:

من جملة الغرائز التي جُبل عليها الإنسان الميل الطبيعي للتناسل، وطلب المعرفة، وحب المال. فإذا عارضنا هذه الغرائز باسم الدين واعتبرنا التجرُّد والانعزال والرهبنة أمراً مقدساً، والزواج أمراً قبيحاً، واعتبرنا الجهل موجباً لخلاص الإنسان والعلم سبباً للضلال، ونظرنا إلى المال على أنه سبب الشقاء، واعتبرنا الفقر والضعف والعجز سبب للسعادة، إذا عرضنا الدين على هذا النحو فما الذي يتوقع أن يحدث بعد ذلك؟ فلنلق نظرة على الإنسان وهو يقع تارة تحت جاذبية الدين وتعاليمه بالشكل السابق، وتجذبه غرائزه تارة أخرى إليها، فيظل قلقاً بينهما، وعليه أن يختار أحد الأمرين أو أن يعيش القلق والاضطراب ما دام حياً. يقول رسل: "إن تعليمات الكنيسة تجعل البشرية بين أحد شقائين وحرمانين، فإما شقاء الدنيا والحرمان فيها من النعم، وإما شقاء الآخرة والحرمان من حورها وقصورها". فلا يمكن محو الغرائز باسم الدين، كما أن رسالة الدين ليست هي محو الغرائز، وإنما تعديلها وتهذيبها وامتلاك أزمّتها وهدايتها نحو العمل الطبيعي المطلوب.

5. الطغيان باسم الحق الإلهي:

نطالع في تاريخ الفكر السياسي في أوربا بأنه عندما كانت تُطرح مسألة الحقوق الطبيعية، وبالأخص مسألة الحكم، فإن عدة من أنصار الاستبداد السياسي كانوا لا يعترفون بأي حق لجماهير الشعب في تحديد نظام الحكم الذي يسود حياتهم، فليس عليهم إلا أن تطيع وتخضع. ولأجل تثبيت هذا الاستبداد وإعطاء الشرعية لأنظمة حكم الطغاة، التجأ هؤلاء إلى مسألة "الله"، وادعوا أن الحاكم مسؤول فقط أمام الله لا غير.

لذا من المتوقع أن يحدث تلازم في الأذهان بين الحكم الشعبي الحر من جهة، وإنكار الله من جهة أخرى. كما يحدث تلازم في الأذهان بين الاعتقاد بالله والاعتقاد بلزوم التسليم في قبال الحاكم، وعدم وجود أي حق يتدخل بموجبه أي شخص في أعمال من اختاره الله لرعاية الأمة. لقد ساد الاعتقاد بأنهم إن قبلوا الله، كان عليهم أن يقبلوا بالاستبداد والطغيان أيضاً، وأن الفرد لا حق له في مقابل الحاكم مطلقاً، وأن الحاكم غير مسؤول أيضاً بأي وجه أمام الفرد، بل هو مسؤول أمام الله فقط. فقبول الله في ظنهم يعني قبول حالة خنق الحرية، في حين أنهم إن أرادوا التحرر كان عليهم إنكار الله، وبالتالي رجحوا الحرية[30].

والخلاصة هو أن تطور علاقة الإنسان بالطبيعة، انعكست سلباً على علاقة الإنسان بالله في أوربا. ومن العوامل الرئيسية المؤثرة في ذلك الكنيسة وما مارسته من مواجهة مع النظريات العلمية الحديثة، مما أدى في النهاية إلى أن صراع بين الدين-كما تمثله المؤسسة الدينية-والعِلم. ودفع بعض

---

[30] اعتمدنا في شرح علاقة الإنسان الأوربي بالله كثيراً على كتاب "الدوافع نحو المادية" لمرتضى مطهري.

المفكرين إلى الاعتقاد بأن النظرة الدينية تمثل نظرة رجعية متخلفة لابد من تجاوزها. فتجد مثل أوجست كونت يًقسِّم مراحل الحياة الإنسانية إلى ثلاثة:

1. المرحلة الإلهية: وهي المرحلة التي يفسر فيها الإنسان الحوادث على نحو يربطها بعالم ما وراء الطبيعة (= الميتافيزيقا)، فهو يرى أن سبب كل شيء هو الله.
2. المرحلة الفلسفية: وهي المرحلة التي يتوصل فيها الإنسان إلى مبدأ السببية، إلا أنه لا يتوصل فيها إلى معرفة أسباب الأشياء بالتفصيل، فهو لإيمانه بمبدأ السببية يحكم بأن أي حادثة لابد أن يكون لها سبب موجود في نفس الطبيعة. وهكذا فهو يتوصل إلى وجود قوى في الطبيعة، ويحكم إجمالا بأن الطبيعة تنطوي على سلسلة من القوى التي تشكل المحرك الأساسي لكل ظواهرها. ولما كان الإنسان في هذه المرحلة يفكر تفكيراً فلسفياً كلياً، فإنه لا يستطيع أن يحكم إلا في حدود مبدأ السببية العام، أما تحديد العلاقة السببية فإن ذلك لا يكون بمقدوره.
3. المرحلة العلمية: وفيها يتوصل الإنسان إلى معرفة أسباب الأشياء في الطبيعة بالتفصيل. وفي هذه المرحلة يتخلى الإنسان عن التفكير الكلي الفلسفي، ويتخذ لنفسه منهج التجربة والملاحظة العلمية، ويبدأ يُفسر الظواهر بعضها بالبعض الآخر.

وهذا النمط من التفكير-أعني الفكر التجريبي الذي لا يعترف إلا بما تتعرّف عليها الحواس من خلال التجربة-شاع بعد أن ضعفت علاقة الإنسان الأوربي بالله، فما دام الله لا يمكن التعرّف عليه بالحواس فما الداعي إذن لافتراض وجوده؟

المحور الثالث: علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان

فوكو: لقد مات الإنسان![31]

كما انعكست علاقة الإنسان الأوربي مع الطبيعة على علاقته مع الله، كذلك انعكست قوة علاقة الإنسان الأوربي مع الطبيعة وضعف علاقته مع الله، انعكسا بدورهما على علاقته مع نفسه أولا ثم مع أخيه الإنسان ثانياً. ونستعرض ذلك من خلال النقاط التالية: العِلم وعلاقة الإنسان بالإنسان، الإنسان ذو البعد الواحد، أما العالَم الثالث فلا بواكي له.

▫ العِلم وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان:

تصور البعض بأن سيطرة الإنسان الأوربي على الطبيعة، وتقدُّمه العلمي، يمكنانه من إيجاد أفضل نظام اجتماعي. فالسؤال عن أفضل نظام اجتماعي ليس إلا كسؤال ما هي أفضل طريقة لتدفئة المسكن؟ هذا السؤال الذي واجهه الإنسان منذ أحس بالبرد، وهو في كهفه أو مغارته،

[31] يُقسِّم المفكرون المعاصرون تطور الفكر الأوربي إلى عصرين: **عصر الحداثة وعصر ما بعد الحداثة**، يبدأ عصر الحداثة-في نظر البعض-مع الانسجام الذي طرأ بين العلم والتكنولوجيا، ويتميز هذا العصر بالإيمان المطلق بالعقل والإنسان. ويرى البعض أن كلمة نيتشه:"لقد مات الله" تلخص الجو العام لعصر الحداثة، وينتهي هذا العصر مع الحرب العالمية الثانية، تلك الحرب التي هزّت الضمير الأوربي، وبعثت قيماً إنسانية جديدة. ويبدأ عصر ما بعد الحداثة مع انتهاء الحرب العالمية الثانية، ويستمر إلى أيامنا هذه. وقد يطلق عليه البعض: عصر المعلومات، أو النظام العالمي الجديد، أو العولمة...الخ، ويقولون أن كلمة فوكو:"لقد مات الإنسان"تلخص الجو العام لعصر ما بعد الحداثة.

فأخذ يفكر في الجواب عنه، حتى اهتدى في ضوء ملاحظاته أو تجاربه العديدة إلى طريقة إيجاد النار، وظل يثابر ويجاهد في سبيل الحصول على أفضل جواب عبر تجاربه المديدة، حتى انتهى أخيراً إلى اكتشاف الكهرباء واستخدامه في التدفئة. وكذلك آلاف المشاكل التي كانت تعترض طريقه، فأدرك طريقة حلّها خلال التجربة، وازداد إدراكه دقة كلما كثرت التجربة، كمشكلة الحصول على أصلح دواء للسل، أو أسهل وسيلة لاستخراج النفط، أو أسرع واسطة للنقل والسفر......الخ. فكما استطاع الإنسان أن يحل هذه المشاكل من خلال تجاربه، تصوّر الإنسان الأوربي أن بإمكانه أن يجيب عن سؤال ما هو أفضل نظام اجتماعي؟ وذلك من خلال تجاربه الاجتماعية، التي تكشف له عن سيئات ومحاسن النظام المجرّب، وتبرز له ردود الفعل على الصعيد الاجتماعي.

وهذا صحيح إلى حدٍ ما؛ فإن التجربة الاجتماعية تتيح للإنسان أن يقدِّم جوابه عن سؤال: ما هو النظام الاجتماعي الأصلح؟ كما أتاحت له تجارب الطبيعة أن يجيب عن الأسئلة الأخرى العديدة التي اكتنفت حياته منذ البداية. ولكننا يجب أن نُفرِّق-إذا أردنا أن نحلل المسألة على مستوى أعمق-بين التجارب الاجتماعية التي يتعرّف فيها الإنسان عن أفضل نظام اجتماعي يمكن أن ينظّم علاقته بالإنسان الآخر، وبين التجارب الطبيعية التي يكتسب الإنسان من خلالها معرفة بأسرار الطبيعة وقوانينها وطريقة الاستفادة منها: كأنجح دواء، أو أسهل وسيلة لاستخراج النفط، أو أسرع واسطة للنقل والسفر، أو أنجع طريقة لفلق الذرة مثلا.

فإن تجارب الإنسان للأنظمة الاجتماعية المختلفة لا تصل في عطائها الفكري إلى درجة التجارب الطبيعية، لأنها تختلف عنها في عدة نقاط. وهذا الاختلاف يؤدي إلى تفاوت قدرة الإنسان على الاستفادة من التجارب الطبيعية والاجتماعية. فبينهما يستطيع الإنسان أن يدرك أسرار الظواهر الطبيعية، ويرتقي في إدراكه هذا إلى ذروة الكمال على مرّ الزمن، بفضل التجارب الطبيعية والعلمية.....لا يسير في مجال إدراكه الاجتماعي للنظام الأصلح إلا سيراً بطيئاً، ولا يتأتّى له بشكل قاطع أن يبلغ الكمال في إدراكه الاجتماعي هذا، مهما توافرت تجاربه الاجتماعية وتكاثرت.

أما في مجال علاقته مع أخيه الإنسان، فقد تكون العقل الغربي الحديث على أساس المذاهب النظرية، لا الأفكار العلمية. فهو ينادي مثلا بـ"حقوق الإنسان" العامة التي أعلنها في ثورته الاجتماعية، ومن الواضح أن فكرة الحق نفسها ليست فكرة علمية، لأن حق الإنسان في الحرية مثلا ليس شيئاً مادياً قابلا للقياس والتجربة، فهو خارج عن نطاق البحث العلمي. وإذا لاحظنا "مبدأ المساواة" بين أفراد المجتمع، الذي يعتبر من الوجهة النظرية أحد المبادئ الأساسية في علاقة الإنسان الأوربي مع أخيه الإنسان. فإننا نجد أن هذا المبدأ لم يستنتج بشكل علمي من التجربة والملاحظة الدقيقة، لأن الناس في مقاييس العِلم ليسوا متساوين إلا في صفة الإنسانية العامة، ثم هم مختلفون بعد ذلك في مزاياهم الطبيعية والفسيولوجية والنفسية والعقلية، وإنما يعبر مبدأ المساواة عن قيمة خُلُقية هي من مدلولات العقل لا من مدلولات التجربة.

وهكذا نستطيع أن نميز بوضوح بين طابع النظام الاجتماعي عند الإنسان الأوربي الحديث، وبين الطابع العِلمي. وندرك أن الاتجاه العلمي في

التفكير الذي برعت في أوربا الحديثة، لم يشمل حقل التنظيم الاجتماعي، وليس هو الأساس الذي استنبطت منه أوربا أنظمتها ومبادئها الاجتماعية، في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع[32].

ومن جانب آخر يمكن أن نلاحظ أيضاً أن خط علاقة الإنسان مع الطبيعة مستقل استقلالا نسبياً عن خط علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان. **فخط علاقة الإنسان مع الطبيعة يواجه مشكلة التناقض بين الإنسان والطبيعة، وهذا التناقض بين الإنسان والطبيعة يعني تمرُّد الطبيعة وتعصّيها عن الاستجابة للحاجة الإنسانية من خلال التفاعل بينهما. وهذا التناقض له حل مستمد من قانون موضوعي يمثل سنة من سنن التاريخ الثابتة، وهذا القانون هو قانون التأثير المتبادل بين الخبرة والممارسة. ذلك لأن الإنسان كلما تضاءل جهله بالطبيعة، وكلما زادت خبرته بلغتها وبقوانينها، ازداد سيطرة عليها، وتمكناً من تطويعها وتذليلها لحاجاته. أما خط علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان فإنه يواجه مشكلة أخرى، ليست هنا مشكلة التناقض بين الإنسان والطبيعة، بل التناقض الاجتماعي بين الإنسان وأخيه الإنسان. وهذا التناقض الاجتماعي بين الإنسان وأخيه الإنسان يتخذ على الساحة الاجتماعية صيغاً متعددة وألواناً مختلفة، لكنه يظل في حقيقته وجوهره، يظل شيئاً ثابتاً وحقيقة واحدة، وهي التناقض بين القوي والضعيف[33].** هذا الكائن الذي هو في مركز القوة إذا لم يكن قد حلّ تناقضه الخاص، جدله الإنساني من الداخل، فسوف يفرز لا محالة صيغة من صيغ التناقض الاجتماعي، ومهما اختلفت الصيغة في لونها الحضاري، فهي في النهاية صيغة من صيغ التناقض بين القوي والضعيف. قد يكون هذا القوي فرداً فرعوناً، قد يكون عصابة، قد يكون شعباً، قد يكون أمة، قد يكون شركة متعددة الجنسيات، قد يكون جهاز إنتاج أو جهاز إعلام.....كل هذه ألوان من التناقض كلها تحتوي روح الصراع وروح الاستغلال بين القوي والضعيف.

▫ الإنسان ذو البعد الواحد:

من المهم جداً أن نعرف التحوُّل الذي طرأ مؤخراً على الإنسان الأوربي، في علاقته مع نفسه، ثم في علاقته مع الآخر. ويمكن أن نبدأ في التعرُّف على ذلك من خلال طرح سؤال معين، وهذا السؤال يحتاج إلى المقدمة التالية: عندما بدأت الثورة الصناعية في أوربا، لاحظ ماركس وجود تناقض طبقي، تناقض بين طبقة تملك كل وسائل الإنتاج أو معظم وسائل الإنتاج، وطبقة لا تملك شيئاً من وسائل الإنتاج، وإنما تعمل من أجل مصالح الطبقة الأولى، تُستثمَر في تشغيل وسائل الإنتاج التي تملكها الطبقة الأولى. ثم هذه الثروة المنتجة التي جسدت عرق جبين هذا العامل المستغَل، هذه الثروة المنتجة تستولي عليها الطبقة الأولى المالكة، ولا تعطي للطبقة الثانية منها إلا الحد الأدنى، حد الكفاف الذي يضمن استمرار حياة هذه الطبقة، لكي تواصل خدمتها للطبقة الأولى.

---

[32] محمد باقر الصدر، الإنسان المعاصر والمشكلة الاجتماعية، سلسلة المدرسة الإسلامية، ص 17-26.
[33] محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، الدرس الثاني عشر، ص202-205

هذا هو التناقض الطبقي الذي اتخذه ماركس أساساً لكل ألوان التناقض الأخرى، وهذا التناقض يتخذ مدلوله الاجتماعي من خلال صراع مرير بين الطبقة المالكة والطبقة العاملة. هذا الصراع المرير بين هاتين الطبقتين ينمو ويشتد كلما تطورت الآلة وتعقدت، وذلك لأن الآلة كلما نمت، وكلما تطورت أدت إلى تخفيض في مستوى المعيشة، وهذا التخفيض يعطي فرصة للطبقة الرأسمالية المالكة في أن تخفض أجر العامل، لأنها لا تريد أن تعطي العامل أكثر مما يديم به حياته ونفسه.
ومن ناحية ثانية إن تطور الآلة وتعقدها يقتضي إمكانية التعويض عن العدد الكبير من العمال بالعدد القليل من العمال، لأن دقة الآلة سوف يُعوِّض عن الجزء الآخر من العمال، وهذا يجعل الطبقة الرأسمالية تطرُد الفائض من العمال باستمرار، وهكذا يشتد الصراع بين الطبقتين ويحتدم التناقض حتى ينفجر في ثورة، هذه الثورة تجسدها الطبقة العاملة تقضي بها على التناقض الطبقي في المجتمع، وتوِّحد المجتمع في طبقة واحدة تمثل كل أفراد المجتمع. وفي حالة من هذا القبيل سوف تستأصل كل ألوان التناقض، لأن أساس التناقض هو التناقض الطبقي، فإذا أزيل هذا التناقض زالت كل التناقضات الفرعية. هذه مقدمة مختصرة جداً، توضح وجهة نظر ماركس وأتباعه الثوريين.
لكن تعالوا نقارن بين هذه النظرة وبين واقع التجربة المعاصرة، لنرى ماذا كنا نتوقع؟ وماذا كنا ننتظر؟ كنا ننتظر ونتوقع أن يزداد يوماً بعد يوم التناقض الطبقي والصراع بين الطبقة الرأسمالية والطبقة العاملة في المجتمعات الأوربية الصناعية التي تطورت فيها الآلة تطوراً كبيراً. كان من المفروض أن هذه المجتمعات كإنجلترا والولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا أن يشتد فيها التناقض الطبقي والصراع يوماً بعد يوم، ويتزلزل النظام الرأسمالي المستغِل ويتداعى بالتدريج. كنا نترقب أن يزداد البؤس والحرمان في جانب الطبقة العاملة ويزداد ثراء الطبقة المالكة، ثم تتضاعف النقمة، فيشتد العامل الأوربي والأمريكي إيماناً بالثورة وبأنها الطريق الوحيد لتصفية هذا التناقض الطبقي. هذا ما كنا ننتظره لو صحت هذه الأفكار عن تفسير التناقض.
لكن ماذا وقع خارجاً؟ ما وقع خارجاً هو عكس ذلك تماماً، نرى وبكل أسف أن النظام الرأسمالي في الدول الرأسمالية المستغلة يزداد ترسخاً يوماً بعد يوم، ويزداد تمحوراً وعملقة، ولا تبدو عليه بوادر الانهيار السريع، تلك التمنيات الطيبة التي تمناها ماركس للدول الصناعية الأوربية تحولّت إلى سراب. ومن ناحية أخرى، هل ازداد العمال بؤساً وفقراً؟ لا بالعكس ازدادوا رخاء وسعة، أصبحوا مدلّلين من قبل الطبقة الرأسمالية المستغلة. هل ازدادت النقمة لدى الطبقة العاملة؟ العكس هو الصحيح. فالعمال والهيئات التي تمثلهم في الدول الرأسمالية المستغلة تحولت بالتدريج إلى هيئات ذات طابع شبه ديموقراطي، تحول أفرادها إلى أشخاص لهم حالة الاسترخاء السياسي، تركوا هموم الثورة، تركوا منطق الثورة، أصبحوا يتصافحون يداً بيد مع تلك الأيدي المستغِلة، مع أيدي الطبقة الرأسمالية، أصبحوا يرفعون شعار تحقيق حقوق العمال عن طريق النقابات والبرلمانات والانتخابات[34]. كل هذا وقع في النصف الثاني من القرن

[34] المصدر السابق، ص 209-214

العشرين، فكيف وقع هذا كله؟ ولماذا لم تتحقق نبوءة ماركس؟ لقد تنبّأ ماركس بأن تحدث ثورة عُمّالية تُعيد الأمور إلى نصابها، وتُعيد للعمال حقوقهم المغتصبة. لكن شيئاً من هذا لم يحدث! **كان العالَم ينتظر تحقق نبوءة ماركس في أوربا والولايات المتحدة على وجه الخصوص، ولم تحدث ثورة عمالية أبداً، بل لوحظ أن نُظُم تلك البلدان الصناعية كانت تستحكم يوماً بعد يوم......وهنا طُرح هذا السؤال: لماذا باتت الثورة في البلدان الصناعية المتقدمة مستبعدة وغير محتملة، بل مستحيلة في نظر البعض؟ توجد إجابتين على هذا السؤال، نستعرض هنا واحدة ونستبقي الأخرى لنستعرضها في النقطة التالية.**

يرى بعض المفكرين الغربيين أنّ الهيمنة الهائلة التي بات يتمتع بها المجتمع الأوربي المعاصر على الفرد-مجتمع التكنولوجيا والصناعة المتقدمة-تتجاوز كل أشكال السيطرة التي مارسها المجتمع في الماضي على أفراده. لقد كانت سيطرة الإنسان على أخيه الإنسان على مرِّ العصور جلّية واضحة، وبسبب وضوحها وجلائها-على وجه التحديد-كان في وسع الإنسان دوماً أن يفضحها ويطالب بوضع حدٍ لها. لكن السيطرة الاجتماعية في عصر التقدم التكنولوجي تتلبّس طابعاً عقلانياً يُجرِّد سلفاً كل احتجاج وكل معارضة من سلاحهما، مما يُعقِّد علمية كشف تلك السيطرة المهولة على الفرد.

ولكن ماذا يقصد هؤلاء بالطابع العقلاني للسيطرة في المجتمع الصناعي؟ إنه قبل كل شيء، قدرة هذا المجتمع-بفضل التطور التكنولوجي-على استباق كل مطالبة بالتغيير الاجتماعي، وعلى تحقيق هذا التغيير تلقائياً.

ومن زاوية الإنجازات العظيمة التي حققها المجتمع الصناعي المتقدم، تبدو أي مطالبة بتجاوز هذا المجتمع هي اللاعقلانية وليس هو. إذ هل من المعقول في شيء المطالبة بتغيير مجتمع يُثبت يومياً قدرته على تنمية الإنتاجية وتوفير حياة الرغد والرفاهية لأفراده؟

ويؤكد هؤلاء على أن المجتمع الصناعي المتقدم هو برُمّته مجتمع مريض، لأن المجتمع السوي هو المجتمع الذي يؤدي تطور إنتاجيته إلى تطور الحاجات والمواهب الإنسانية تطوراً حراً. في حين أن المجتمع الصناعي فضلا عن عدم تطويره للحاجات والمواهب الإنسانية تطويراً حراً، فإنه على العكس من ذلك تماماً، فإنتاجيته لا يمكن أن تستمر في التطور على الوتيرة الراهنة، إلا إذا قمعت تطور الحاجات والمواهب الإنسانية وتفتحها الحر، شأنها في ذلك شأن السِّلم الذي ينعم به المجتمع المعاصر، إذ أن هذا السِّلم غير متحقِّق إلا بفضل شبه الحرب الشاملة المنذرة دوماً بالاندلاع. إن المجتمع الصناعي المعاصر يسير قدماً نحو تحقيق التلاحم الاجتماعي الداخلي، واستبعاد كل شكل من أشكال التناقض. ومن هنا كان هذا المجتمع مجتمعاً أحادي البعد، يُحيلك باستمرار إلى ذاته، ويجرد من المعنى كل محاولة لمناوأته ومعارضته، فضلا عن نفيه وهدمه، ما دام يلبي حاجات الناس ويرفع مستوى حياتهم باستمرار.

لكن هل الحاجات التي يلبّيها هذا المجتمع هي حاجات حقيقية أو كاذبة؟ حاجات إنسانية حقاً وتلقائية، أم حاجات مصطنعة اصطناعاً ومفروضة فرضاً؟ إنها حاجات وهمية من صُنع الدعاية والإعلان والسينما والصحف

والمجلات والتلفزيون والإنترنت. وإذا كان المجتمع يحرص على تلبية هذه الحاجات المصطنعة، فليس ذلك لأنها شرط استمراره ونمو إنتاجيته فحسب بل أيضاً لأنها خير وسيلة لخلق الإنسان ذو البعد الواحد أو لخلق الشخصية التسويقية[35] التي تقبل بالمجتمع ذي البعد الواحد مجتمع اقتصاد السوق. وما الإنسان ذو البعد الواحد أو الشخصية التسويقية إلا ذاك الذي استغنى عن الحرية بوهم الحرية، فإذا كان هذا الإنسان يتوهَّم بأنه حر لمجرد أنه يستطيع أن يختار بين تشكيلة كبيرة من البضائع والخدمات التي يكفلها له المجتمع تلبية لحاجاته المصطنعة، فما أشبهه من هذه الزاوية بالعبد الذي يتوهَّم بأنه حر لمجرد أنه مُنِحت له حرية اختيار سادتها![36].
لقد تشّيأ الإنسان-أي أصبح شيئاً-واستُلِبَ واغترَبَ عن نفسه تحت ضغط العالَم التكنولوجي حيث فُرض عليه ألواناً من السلوك النمطي الرتيب، وسُدّت عليه منافذ المبادرة الشخصية الحرة، وخُنقت فاعليته الخلاقة، وجعلته نهباً لمظاهر القهر الخفية.فأحكمت أجهزة "الإدارة" قبضتها عليه، وسلبت منه فرديته، وانحطت قيمته الإنسانية إلى مستوى "الشيء" الذي تُشكِّله القوى المسيطرة كيفما شاءت. ثم بعد ذلك، وُحِّدت حاجاته، وقُنِّنت أنماط سلوكه، وسُوِّي بينها عن طريق الإنتاج السلعي الضخم وصناعة التسويق والاستهلاك على أوسع نطاق. بحيث بدأ يتصوّر الإنسان-من خلال شركات الإنتاج ووكالاته التي لا حصر لها ومن خلال ثقافتها الإعلامية-أن أنماط السلوك الموحّدة والمقنّنة هي وحدها الأنماط الطبيعية، المحترمة، المعقولة[37].
إن المجتمع الصناعي المعاصر مجتمع طبقي، ينقسم إلى طبقة مُستغَلَّة وطبقة مُستغِلّة، وحتى يُموِّه هذا المجتمع انقسامه الطبقي من ناحية، وحتى يُوحِّد نمط الحاجات، ويُقنِّن أوجه السلوك، تجد أن العامِل وربِّ العمل يشاهدان نفس البرنامج التلفزيوني، والسكرتيرة ترتدي ملابس لا تقلّ أناقة عن ملابس ابنة مُستخدِمها، والزنجي الذي لا يتمتع بحقوقه المدنية يمتلك سيارة فارهة، والجميع يقرءون الصحيفة نفسها. ولكن هذه المظاهر لا تعني أن الطبقات قد زالت، وإنما تدل في الحقيقة على مدى مساهمة الطبقة السائدة في تحديد الحاجات التي تضمن استمرار السيادة لها.
وإذا كان في وسع الإنسان أن يميز مجتمع السيطرة غير الحر من خلال تسلسل رقاباته، فإن المجتمع ذا البعد الواحد قد قفز قفزة هائلة إلى الأمام في طريق تزييف وعي الفرد، وذلك عندما استبدل الرقابة الخارجية المفروضة من فوق، بنوع من الرقابة الداخلية المستبطنة. وقد أثبتت هذه الرقابة الداخلية فعاليتها ونجاحها إلى درجة باتٍ معها الفرد الذي يأبى الانصياع والامتثال للمجتمع القائم، يُعتبر عاجزاً، بل مريضاً نفسياً، لا في نظر المجتمع، بل في نظره هو بالذات.
لقد تحوّل المجتمع الصناعي المتقدِّم-في نظر هؤلاء-إلى نظام شامل للقمع والهيمنة والسيطرة، وعُرِّض الإنسان المعاصر لأشكال مختلفة من

---

[35] يطلق هربارت ماركوز اسم الإنسان ذو البعد الواحد على الإنسان الذي يعيش في المجتمع الصناعي ويتكيّف معه، في حين يطلق إريك فروم على هذا الإنسان: الشخصية التسويقية. وسيأتي مزيد من الشرح لتوضيح معالم هذه الشخصية.
[36] هربارت ماركوز، الانسان ذو البعد الواحد، أنظر المدخل والفصل الأول.
[37] عبد الغفار مكاوي، النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، ص 25-26.

القهر الظاهر والباطن، والقمع الواعي أو غير الواعي، الذي ينطلق من أجهزة الإنتاج الضخمة، والمؤسسات الإدارية والبيروقراطية والاستهلاكية والإعلامية، التي تشبه آلات هائلة، يحاول الناس أن يكيّفوا أنفسهم مع ضغوطها ومطالبها. ويضطرون في سبيل ذلك، إلى قمع طبيعتهم، بل يبلغ الأمر بهم في كثير من الأحيان إلى عدم الإحساس بالقمع الذي تمارسه عليهم تلك الأجهزة التكنولوجية المخيفة، التي تتحكم في حياتهم الخاصة، فتُشكّل دوافعهم، وتُوحّد أنماط سلوكهم، وتخلق فيهم حاجات مادية وروحية زائفة، يشبعها مجتمع الاستهلاك والرفاهية بكافة السبل،
فيتوهمون أنهم يحيون حياة سعيدة هانئة، في الوقت الذي تُطيل فيه أمد عبوديتهم وشقائهم، وتُضاعف القهر لدوافعهم وحاجاتهم الحقيقية. وواقع الأمر أن القوى المسيطرة على تلك المجتمعات هي التي أوحت إليهم بالحاجات المزيفة، لتحقيق مصالحها في إقرار الأوضاع القائمة، مستعينة على ذلك بأجهزة الإعلام وتكنولوجيا التأثير على الجماهير، التي استطاعت أن تُشكّل إحساسهم الفردي بالسعادة. وأخطر ما في الأمر أن الناس يستسلمون لهذه الأوضاع ويقاومون أي محاولة ثورية لتغييرها، متصوّرين أن هذا التغيير ضد مصالحهم لا ضد مصالح القوى المسيطرة عليهم[38].
هذا حال المجتمع الصناعي المعاصر، فإذا أردنا أن نضع الفرد المنتمي إلى هذا المجتمع تحت المجهر، سنلتقي بالإنسان ذو البعد الواحد أو الشخصية التسويقية. فقد بدأت تلك الشخصية بالظهور ابتداء من القرن العشرين. وقد اعتبر البعض أن تلك الشخصية ذات بعد واحد، لأنها شخصية بلا ذات، تفتقر للمشاعر والحاجات الإنسانية الأصيلة، شكّلها أجهزة الإنتاج والإعلام. وسماها آخرون بالشخصية التسويقية لأنها تقوم على ممارسة الشخص لذاته كسلعة، ولقيمته كـ"قيمة تبادلية" لا كـ"قيمة انتفاعية"، حيث أصبح الكائن البشري سلعة في "سوق الشخصيات". ولا تختلف معايير التقييم في سوق الشخصيات عن نظيرتها في سوق السلع. في واحدة تُعرض السلع للبيع، وفي الأخرى تُعرض الشخصيات. وفي الحالين قيمة المعروض هي قيمته التبادلية، حيث قيمتها الانتفاعية-الاستعمالية-شرط لازم ولكن ليس كافياً.
وعلى الرغم من أن نسبة المهارات والصفات الإنسانية إلى مجمل الشخصية تختلف من إنسان لآخر، إلا أن "عامل الشخصية"يلعب دوراً حاسماً على الدوام؛ حيث يتوقف النجاح إلى حدٍ كبير على كيفية إظهار الفرد "شخصيته"، كيف يجعل من مجموع صفاته وشخصيته "صفقة" مقبولة. هل هو في مجمله "مرح"، "مُقنع"، "مُقتحم"، "طموح"، "يُعتمد عليه"؟ وأكثر من ذلك، من أي وسط عائلي جاء؟ وإلى أي نادي ينتسب؟ وأي ناس يعرف؟ ويتوقف نمط الشخصية المطلوبة إلى حدٍ ما على طبيعة العمل. فكل من سمسار سوق الأوراق المالية، ومندوب المبيعات، والسكرتيرة، وأستاذ الجامعة، ومدير خط سكة الحديد، أو مدير الفندق، يجب أن يُقدّم شخصية مختلفة عن الآخرين. وعلى الرغم من الاختلاف فيما بينهم، إلا أن شرطاً واحداً يجب أن يتحقق، وهو أن يكونوا مطلوبين .
ويتشكّل موقف الإنسان من ذاته على النحو التالي: لم تعد الكفاءة والتأهيل للعمل يكفيان، وإنما يجب أن ينجح في المباراة مع آخرين لإحراز

[38] هربارت ماركوز، الانسان ذو البعد الواحد، أنظر المدخل والفصل الأول

النجاح. ولو أن كسب العيش لا يتطلب إلا الاعتماد على معلومات الإنسان وخبرته وكفاءته، لكان تقدير الإنسان لذاته متناسباً تناسباً طردياً مع قدراته، أي مع قيمته الانتفاعية. ولكن، لما كان النجاح يتوقف إلى حد كبير على كيفية بيع الإنسان شخصيته، فإن الإنسان يمارس ذاته كسلعة، أو بالأحرى كالبائع والسلعة المعروضة لبيع معاً. وهكذا لا يصبح اهتمام الإنسان يدور حول حياته وسعادته، وإنما كل همّه أن يُباع ويُشترى. إذن هدف الشخصية التسويقية هو التلاؤم الكامل لكي يكون صاحبها في كل الظروف مطلوباً في سوق الشخصيات، فلم يعد لصاحبها "أنا" يتمسك بها، وإنما هو يغير هذا الـ"الأنا"باستمرار، وفقاً للقاعدة "أنا أكون كما تريدني أن أكون"[39].

وأصحاب الشخصية التسويقية-ذات البعد الواحد-أُناس لا هدف لهم سوى أن يتحركوا، وأن يقوموا بأفعال بأعلى درجة من الكفاءة. وإذا ما سُئلوا: لماذا يجب أن تتحركوا بمثل هذه السرعة، ولماذا يجب أن تفعلوا أفعالا بأعلى درجة من الكفاءة؟ فإنهم لا يجيبون إجابة مقنعة، وإنما يُقدِّمون تبريرات مثل: "من أجل خلق فرص عمل أكثر"، أو "من أجل أن تستمر الشركة في النمو". وهم لا يهتمون-اهتماماً واعياً على الأقل-بالقضايا الفلسفية والدينية مثل: لماذا يعيش الإنسان؟ أو لماذا ينتهج طريقاً في الحياة دون آخر؟ ولكلٍّ منهم "أنا" كبير الحجم، دائم التغير، ولكن بلا ذات، بلا إحساس بالهوية. و"أزمة الهوية" في المجتمع الصناعي الحديث ناتجة-في الحقيقة-من أن أفراد هذا المجتمع قد أصبحوا أدوات بلا ذوات، يستمدون هويتهم-فحسب-من العمل في إحدى المؤسسات أو الشركات الكبيرة أو العملاقة، وحيث لا توجد ذات حقيقة يستحيل وجود هوية.

وصاحب الشخصية التسويقية لا يُحب ولا يكره، فهذه المشاعر التي عفا عليها الزمن لا تتناسب مع هذا بنية هذا المجتمع. لذا تتجنب تلك الشخصية الانفعالات الوجدانية، بخيرها وشرها، لكيلا تتعثر مهمتها الأساسية، ألا وهي البيع والمبادلة. ولما كان أصحاب الشخصية التسويقية لا يربطهم رابط بأنفسهم ولا بغيرهم، فإنه لا قلق لديهم ولا اهتمامات-بالمعنى العميق للكلمة-لا لأنهم أنانيون إلى هذه الدرجة، وإنما لأن علاقاتهم واهية بأنفسهم وبالآخرين. وهذا ما يفسر لماذا لا يعنيهم أمر الكوارث النووية أو البيئية التي تهددنا، على الرغم من أنهم يعرفون كل المعلومات المتعلقة بالموضوع. ويمكن أن نجد في ظاهرة الشخصية التسويقية إجابة بالغة الدلالة عن سؤال محير هو: لماذا نرى الكائنات البشرية المعاصرة مُغرمة بالشراء والاستهلاك، بينما لا تربطها بالأشياء التي تشتريها إلا رابطة ضعيفة واهية؟ والإجابة هي أن افتقاد الشخصية التسويقية للارتباطات الحميمة ينسحب أيضاً على الأشياء. فربما كانت المشتريات تعطي لمشتريها نوعاً من الاعتبار والراحة لا أكثر، أما الأشياء في ذاتها فلا قيمة حقيقة لها، فيمكن الاستغناء عنها تماماً مثل ما يمكن الاستغناء عن الأصدقاء والأحباء، حيث لا توجد علاقات أكثر عمقاً تربط الشخص بأي منها[40].

والخلاصة: أن الإجابة التي يقدمها بعض المفكرين الغربيين لتفسير عدم تحقق نبوءة ماركس، تكمُن في طبيعة تركيب

---

[39] وهناك تعبير رائج بيننا يؤدي هذا المعنى: "الجمهور عاوز كده".

[40] إريك فروم، نتملّك أو نكون (= الإنسان بين الجوهر والمظهر)، ص156-159

المجتمع الحديث الذي استلَبَ شخصية الإنسان المعاصر، بحيث أصبح بمقدوره السيطرة عليه وتشكيل رغباته على النحو الذي يحقق مصالح طبقة معينة فيه، وذلك من خلال جهاز الإنتاج والإعلام الهائل. وأدى ذلك إلى ظهور إنسان مشوّه، ذو بُعد واحد، بلا ذات، همُّه الوحيد أن يبُاع ويُشترى في سوق الشخصيات[41].

▫ أما العالَم الثالث فلا بواكي له[42]:

أشرنا فيما سبق إلى وجود إجابة ثانية تُبرر عدم تحقق نبوءة ماركس في المجتمع الصناعي المعاصر. فبينما تبنى الإجابة الأولى مفكرون ناقدون ينتمون لذلك المجتمع، تبنى الإجابة الثانية مفكرون ينتمون للعالَم الثالث. ونحن إن أردنا أن نكون موضوعيين، فلابد أن نضع كلا الإجابتين في الاعتبار، لأن الأولى جاءت من عين حلّلت الوضع من الداخل، والثانية جاءت من عين حلّلت الوضع من الخارج، وكلاهما يمكن اعتبارهما وجهان لعملة واحدة.

يتساءل هؤلاء المفكرون: هل كان ماركس سيئ الظن بالرأسماليين إلى هذه الدرجة، بحيث تنبأ بهذه النبوءات ثم ضاعت هذه النبوءات كلها دون أن يتحقق منها شيء؟ هل دخل في نفوس هؤلاء الرأسماليين المستغلين الرُّعب من نبوءات ماركس فحاولوا أن يتنازلوا عن جزء من مكاسبهم خوفاً من أن يثور العامل عليهم؟ هل دخل في نفوس هؤلاء التقوى فجأة فقرروا أن يشاطرون إخوانهم سراءهم وضراءهم؟

يؤكد هؤلاء المفكرون على أن شيئاً من ذلك لم يتحقق، فلا ماركس كان سيئ الظن بهؤلاء، بل كان ظنه في محله تماماً. ولا أن هؤلاء أرعبهم شبح العامل، فتنازلوا من أجل إسكاته، ولا أن قلوبهم خفقت بالتقوى! ماذا وقع إذن؟ يجيب هؤلاء بأن الذي وقع كان نتيجة تناقض آخر عاش مع التناقض الطبقي منذ البداية، لكن ماركس لم يستطع اكتشاف ذلك التناقض، لأنه حصر نفسه في التناقض الطبقي بين الغني الأوربي والعامل الأوربي. لم يدخل ماركس في حسابه التناقض الآخر الذي أفرزه الإنسان الأوربي، فغطى على كل هذا التناقض الطبقي، بل جمّده إلى فترة طويلة من الزمن، ما هو هذا التناقض؟ **يؤكد هؤلاء المفكرون على أن التناقض لم يعد بين الغني الأوربي والعامل الأوربي، بل إن هذين الوجودين الطبقيين قد تحالفا معاً، وكوّنا تناقضاً أكبر، بدأ تاريخياً منذ بدأ التناقض الذي تحدث عنه ماركس. لكن ما هو القطب الآخر في هذا التناقض؟ القطب الآخر هو الشعوب الفقيرة في العالم، هو شعوب ما يسمى بـ"العالم الثالث"، هم شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، هذه الشعوب هي التي تمثل القطب الثاني في هذا التناقض.**

---

[41] من المهم جداً الالتفات إلى أن هذا التحليل وإن صيغ على نحو التعميم، إلا أن الاستثناءات كثيرة. فليس كل من يعيش في المجتمع الصناعي المعاصر هو إنسان ذو بعد واحد، وذو شخصية تسويقية، إلا أنّ وجود هذا النوع من الإنسان كظاهرة يمكن أن تعيق التغير الاجتماعي، لا يمكن إنكاره.

[42] هذه العبارة مستوحاة من كلمة مرويّة عن النبي (ص) في معركة أحد، عندما وجد بعد انتهاء المعركة أن النسوة اجتمعن عند الشهداء يندبنهن، باستثناء سيد الشهداء حمزة، حيث ترك وحيداً، ولم يندبه أي منهن. فقال كلمته المشهورة: "أما حمزة فلا بواكي له"، فاجتمع النسوة عنده وبكين عليه. وتعني هذه العبارة هنا: أن المفكرين الغربيين عندما أرادوا تفسير عدم تحقق نبوءة ماركس، لم يلتفتوا أصلا لوجود عالم ثالث يرزح تحت نير الاستعمار أو الاستغلال.

إن الإنسان الأوربي بكلا وجوديه الطبقيين، تحالف وتمحور من أجل أن يمارس صراعه واستغلاله لهذه الشعوب الفقيرة. وقد انعكس هذا التناقض الأكبر، انعكس اجتماعياً من خلال صيغ الاستعمار المختلفة التي زخرت بها الساحة التاريخية من خرج الإنسان الأوربي من دياره ليفتش عن كنوز الأرض في مختلف أرجاء العالم، ولينهب-بلا حساب-كم مختلف البلاد والشعوب الفقيرة. هذا التناقض غطى على التناقض الطبقي، بل جمّد التناقض الطبقي، لأن الثراء الذي تكدّس في أيدي الطبقة الرأسمالية في الدول الصناعية لم يكن كله، بل ولا معظمه، نتاج عرق جبين العامل الأوربي والأمريكي، وإنما كان نتاج حرب، كان نتاج غنائم غارات، غارات على هذه البلاد الفقيرة، على بلاد أخرى استطاع الإنسان الأبيض أن يغزوها وأن ينهبها. هذا النعيم الذي تغرق فيه تلك الدول ليس من عرق جبين العامل الأوربي، ليس من نتاج التناقض الطبقي بين الرأسمالي والعامل، وإنما هذا النعيم هو من نفط آسيا وأمريكا اللاتينية، هو من ألماس تنزانيا، هو من الحديد والرصاص والنحاس واليورانيوم في مختلف بلاد أفريقيا. هو من قطن مصر، هو من تنباك لبنان، هو من خمر الجزائر. نعم من خمر الجزائر، لأن المستعمِر الذي استعمر الجزائر حوّل أرضها كلها إلى بستان عنب، لكي يقطف هذا العنب ويحوله إلى خمر، ليسكر به العمال، وليشعر أولئك العمال بالنشوة والخيلاء. لقد سكروا على خمر الجزائر ولم يسكروا على عرق جبين العامل الأوربي أو الأمريكي.
إذن التناقض الذي جمّد تناقض الغني الأوربي والعامل الأوربي، هو هذا التناقض الأكبر بين المحور الرأسمالي ككل، بكلتا طبقتيه، وما بين الشعوب الفقيرة في العالم. ومن خلال هذا التناقض وجد الرأسمالي الأوربي والأمريكي أن من مصلحته أن يُقاسم العامل شيئاً من الغنائم التي نهبها مني ومنك، التي نهبها من فقراء الأرض والمستضعفين في الأرض. لقد رأى أن من مصلحته أن يسكر هو ويُسكر العمال أيضاً بخمر الجزائر، أن يتزيّن بماس تنزانيا ويتزين معه العامل أو زوجته بماسة من ماسات تنزانيا. ولهذا نرى أن العامل بدأت حياته تختلف عن نبوءات ماركس، ليس لأجل كرم طبيعي في الرأسمالي الأوربي والأمريكي، وليس لتقوى، وإنما هي غنيمة كبيرة، كان من المفروض أن يعطي جزءاً منها لهذا العامل، والجزء وحده يكفي لأجل تحقيق هذا الرفاه بالنسبة للعامل الأوربي والأمريكي[43].
وهذا ما يؤكد مرة أخرى بأن التناقض الحقيقي الذي يحكم علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان، ليس هو التناقض بين من يملك ومن لا يملك، وإنما هو التناقض بين استغلال القوي للضعيف.

خالد عبد العزيز الفرج-الكويت
2000م-1420هـ

[43] محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، ص 214-220 أنظر أيضاً د.على شريعتي، العودة إلى الذات، ص 160-179